أثر الإسلام في التقدم الحضاري

إعداد

د/ عبده علي عبده مقلد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فإن الإسلام هو النعمة الكبرى التي بعث الله بها رسوله محمدا للعاملين وهو الدين الذي أنقذ الله به البشرية من ضلالات الجاهلية وفساد أنظمتها ، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور وهداهم إلى الصراط المستقيم ، وحقق للآدميين إنسانيتهم وكرامتهم وحدد أهداف الإنسان في الحياة ونظم أموره وضبط حركته الفكرية والعلمية والسلوكية في شتى مناحي الحياة ، فانطلق ليؤدي وظيفة الاستخلاف في الأرض بعقيدة الإسلام الراسخة ليحقق هدف التمكين في الأرض بعبوديته لله سبحانه وتعالى ، فشيد بذلك بناءاً حضارياً راسخاً تليداً شامخاً ارتكز على أساس الاعتقاد الصحيح ، وانضبطت الحركة الحضارية فيه بضوابط الأخلاق والقيم ، ولم تتقوقع هذه الحضارة على نفسها بل أخذت من الحضارات السابقة خير ما فيها حتى قدمت للعالم أسمى حضارة عرفها التاريخ .

وقد أثرت هذه الحضارة في الأمم الأخرى فأخذوا منها القواعد والأسس والمناهج العلمية والفكرية التي بنوا عليها حضاراتهم ، إلا أنهم نشزوا عن قيمتها وأخلاقها حيث اقتصروا على مناهج البحث وقواعده فأضحت حضاراتهم مادية لا دينية ولا أخلاقية حيث شقيت بها الإنسانية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل يستطيع المسلمون أن يعيدوا مجدهم الحضاري ؟ وهل لديهم مقومات تأخذ بيدهم من السقوط إلى الشهود الحضاري ؟

والإجابة أنهم في استطاعتهم ذلك بفهمهم واستيعابهم لحقائق الدين الإسلامي ، وبتطبيقهم الصحيح لمبادئه ، وحسن تعاملهم مع سنن الله في الكون وأخذهم بأسباب العمران ، والعوامل التي تساعدهم في ذلك إنما هي معطيات أسدتها شريعة الإسلام للبشرية تحقق بها الحضارة المرجوة ، وهذا ما قصدته في هذا البحث إسهاماً مني في المشروع الحضاري لأمتنا الإسلامية .

والله ولي التوفيق ،،،

تعريف الحضارة

الحضـــارة في لسان العرب تدور حول معاني الحضور في المدن والإقامـــة فيها والتوطن في أماكن العمران ، ومعنى الازدهار ، والحظوة بالبغية .

قـــال في اللسان : الحضر خلاف البدو ، والحاضر خلاف البادي وفـــي الحديث (لا يبع حاضر لباد)[١] الحاضر : المقيم في المدن والقرى والـــبادي ، المقيم بالبادية ، وقال : ويقال فلان من أهل الحاضرة ، وفلان مـــن أهل البادية ، وفلان حضري وفلان بدوي ، والحضارة : الإقامة في الحضـــر ... وكـــان الأصـــمعي يقـــول : الحضـــارة ، بالفتح ، قال القطامي[٢].

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا[٣]

وجاء في المعجم الوسيط : أنها مرحلة تطور متقدمة ، حيث جاء فـــيه : الحضارة : الإقامة في الحضر - ضد البداوة ، وهي مرحلة سامية مـــن مـــراحل الـــتطور الإنساني ، ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[٤] .

وجـــاء فـــي تكملـــة المعـــاجم إضـــافة معاني الازدهار والرخاء والرفاهية، فقد جاء فيه : وحضر : ازدهر ، عمر ....

(وتحضـــر : ازدهـــر ، وعمـــر بالسكان ، وتحضر الرجل أفلح وحظى بكل ما يحتاج إليه) .

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه عن ابن عباس : وسئل عن المعنى فقال : لا يكون له سمساراً كتاب البيوع باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر فتح الباري ج٥ ص٢٧٥ ، ط. السفلية .

(٢) بضم القاف وفتحها ، عمير بن شييم بن عباد ، شاعر غزل فحل من نصارى تغلب ، اسلم وعد في الطبقة الثانية من الإسلامية ، الإعلام ج٥ ص٨٨ ط. ٦ .

(٣) لسان العرب (جمال الدين محمد بن منظور توفى سنة ٧١١هـ ج٥ ص ٢٧٢ وما بعدها ط. المؤسسة المصرية العامة مصورة عن طبعة بولاق.

(٤) ج١ ص١٨١ .

وحضارة : حالة الرخاء والازدهار والرفاهية التي يدل عليها ثراء الزيـــنة والملابـــس وجمـــال الحدائق والعمارات وفخامة المآرب إلى غير ذلك ...[١]

وننتهي بعد هذا العرض إلى ما يأتي :

إن الحضارة ، تعني الحضور ضد الغياب ، كما تعني التوطن في دار قـــرار ، والإقامة في أماكن العمران ، ضد التنقل والترحل والبداوة ، كمـــا تعنـــي الفـــلاح وتحصيل حوائج الإنسان كما تأتي بمعنى الازدهار والرقـــي ، وعلـــى كـــل فهي حالة حضور في جزء من العالم صار بذلك حضـــراً ومدينة ، كما نستنتج أن هذه الكلمة قديمة في اللغة العربية وليست مستحدثة ولا مولدة .

تعريف الحضارة في الاصطلاح :

وفـــي البداية حتى يكون تعريف المصطلح صحيحاً فلابد أن يكون - الـــتعريف جامعاً لأوصافه الضرورية وصفاته الكاملة وملامحه المميزة لـــه عمـــا سواه ، ومصطلح الحضارة مع أنه كثير الاستعمال والتداول في الكـــتابات العلمـــية وغـــيرها ومـــع غزارة سماع الأذن له في الإذاعات والمحاضـــرات ، إلا أنـــه مـــن الصـــعوبة بمكان تحديده حسب مقتضيات الـــتعريفات الســـابقة ولعل ذلك يرجع إلى كثرة استخدامه لأكثر من معنى ومقصـــد وعلى ألسنة مجموعات متباينة من المتخصصين ، ولعل الأقرب إلـــى الصـــواب في خضم التعريفات للحضارة ، التعريف الذي يتفق على عناصـــره - أو مجموعـــة مـــنها - جمهرة أهل الاختصاص ، والآن إلى اســـتعراض جملـــة مـــن هـــذه التعريفات وبعد ذلك يمكن ترجيح أقربها للصواب.

---

(١) أنظر تكملة المعاجم العربية لرينارت دوزي ، ترجمة د/ محمد سالم النعمي ، ج٣ ص٢٢٥-٢٢٦ ، ط. وزارة الثقافة ، الجمهورية العراقية ١٩٨١م .

الحضارة عند ابن خلدون[١] :

يمكن أن يقال إن الحضارة عند ابن خلدون : نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار ، ويضفي على حياة أصحابها فنونا منتظمة من العيش والاجتماع والعلم والعمل والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وترتيب وسائل الراحة والرفاهية .

فهو يقول : والضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني وسائر عوائد المنزل وأحواله[٢] .

كما يذكر أن الحضارة تعني عدم الاقتصار على الضروري في الحياة بل تجاوزه إلى العناية بالكماليات والترف ، فإن (البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم)[٣] .

كما أن (الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القرمة[٤] عليه والمهرة فيه وبقدر ما تزيد من أصنافها تزيد أهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها وحتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصناع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والإعصار بطولها وانفساح أمرها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً وأكثر ما يقع في أهلها وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالها بالجاه أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم في من تعلق بهم من أهل المصر وهو الأكثر

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ٠ مولده ومنشأه بتونس ٠ وتولى أعمال في أكثر من قطر منها قضاء المالكية في مصر في عهد الظاهر برقوق ٠ توفى في القاهرة فجأة سنة ٨٠٨هـ ٠ الإعلام ج٣ ص٣٣٠ .

(٢) مقدمة كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ص١٧٢ ط. بيروت .

(٣) نفس المصدر السابق ص١٢٢ .

(٤) القرمة : المتمكنون القوام على الشيء .

فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة[١] .

ثم يعقد ابن خلدون فصلاً في مقدمته بعنوان (فصل : في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده)[٢] .

وعلى كل فالباحث فيما كتبه ابن خلدون في الحضارة وعنها - يجد أن كلامه عنها ممزوج متصل بكلامه عن العمران وأسبابه وعوامل بقائه وفناءه ، كما يستنتج أن (الحضارة عنده هي الوصول إلى منتهى العمران ، أي إلى منتهى التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة ، والدخول في طور الحضارة ، وهي دور الرقي الاجتماعي الثابت الذي لا يتطور وهو بهذا مرحلة ثابتة على مستوى من الرقي لا يبقى بعده إلا الانحدار)[٣] ، وهذا ما يقصده بقوله : إن الحضارة غاية ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده .

على أن المفهوم من كلام ابن خلدون وجود فارق بين الثقافة والمدنية والحضارة ، حيث يستنتج من جملة حديثه عن العمران والبداوة والحضارة أن الأخيرة (ترتكز على ركيزتين أساسيتين هما : الثقافة ، والمدنية) والثقافة تعني : التطور في الأفكار النظرية ، لنظم السياسة ، ونظريات الاقتصاد وأسس القانون ومبادئ التاريخ وغيرها ، من العلوم الإنسانية والاجتماعية ، و(المدنية) تعني : التقدم في العلوم العملية ، والتجريبية كالطب ، والصيدلة ، والهندسة ، والزراعة ، والكيمياء ، وما إليها مما يرتبط بالقرى والأمصار على حد تعبير ابن خلدون ، فلا يمكن للطب أن يمارس أو يتطور دون وجود مستشفيات ومرافق علاج ، ولا الهندسة دون ورش ومعامل وتجارب ولا الاختبارات الزراعية أن تجري دون أن ترتبط بالحقول والمزارع[٤] .

---

(١) السابق ص٣٦٨ .

(٢) أنظر ص٣٧١ ٠ ثم بين كيف يكون ذلك ٠ حيث تواضع المكوس والضرائب عند غاية الترف مما يؤذن بالفساد ٠ إلى ص٣٤٧ .

(٣) أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ٠ د / سليمان الخطيب ص٥٦ ط. الزهراء للإعلام العربي ط. الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(٤) ط. أخبار اليوم بمصر ٠ أنظر دراسة في البناء الحضاري (محنة لمسلم مع حضارة عصره) د / محمود سفر ص١١٥ ٠ كتاب الأمة (٢١) .

الحضارة عند المفكرين الإسلاميين حديثاً :

عنـي كثـير مـن أهل الفكر الإسلامي في هذا العصر بالحضارة ودراسة جوانبها وعواملها والأسس التي تبني حضارة المسلمين من جديد، الـخ هذه الدراسات المتعلقة بالحضارات ،من هؤلاء المفكرين جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان وسيد قطب ومالك بن نبي وأبو الأعلى المودودي وما زال العقل الإسلامي يـترقى فـي محاولاته لبناء المشروع الحضاري للأمة بصياغة عصرية ملائمة .

والقـارئ لهذا النتاج الفكري في دائرة الحضارة لا يجد تفاوتا في الأفكـار يـؤرخ له ويفحـص تحت منظار الدراسات الجادة ، والألفاظ قد تـتقارب أو تتباعد لكن لا ترى تناقضا في الأفكار ، فالمفكر المسلم يركز على انطلاقة العقيدة الإسلامية الصحيحة ودوافعها القوية للمسلم وتحريرها لـه ... الـخ كمـا يعطـي الفكر الإسلامي أهمية كبرى للقيم الأخلاقية والسـلوكية الفـردية والجماعية والاقتصادية والسياسية التي لا تخرج عن دائـرة المشروع المباح ، كل هذا بمصاحبة التطور والتقدم الصناعيين في ضـوء الفهـم للسـنن الربانية في الكون مع التقدير وحسن التعامل مع ما سـخره الله - تعالى - للإنسان ، لتتحقق خلافة الإنسان كما أرادها الله في الأرض بعبوديـته وحده لا شريك له وآخذ نموذجا من هذه الدراسات وهي دراسة الأستاذ مالك بن نبي .

الحضارة عند مالك بن نبي[١] :

عـرف مـالك بن نبي الحضارة بعدة تعريفات هي في مجموعها تـتكامل لـتكون فكرة كاملة عن الحضارة ، فتراه يجعل الثقافة لها جوهرا وأصلا ، كما يجعل عنصر الأخلاق غير منفصل عن عناصرها الأخرى ، ويوظفهـا فـي توفير الضمانات اللازمة للفرد في كل أطوار حياته ليحقق الـتقدم ، ثـم إنها صحيحة وطيدة بين الأفكار والمجال الحيوي البيولجي ،

(١) مفكر إسلامي جزائري . ولد في مدينة قسطنطينية سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م ودرس القضاء ، والهندسة أقام بالقاهرة مدة ، له إنتاج غزير من الفكر الإسلامي ، عمل عضوا بجمع البحوث الإسلامية . توفى ببلده سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

فهـو يعـرفها بأنهـا (في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم التقافية المحققة)[١] .

كما يعرفها بأنها (إنتاج فكرة تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضـر ، الدفعـة التي تجعله يدخل التاريخ ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره .

وعلـى هـذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى[٢] ، ويحدد عناصرها في تعـريف آخر فيقول هي : بناء مركب اجتماعي يشمل ثلاثة عناصر فقط ، وهـذه العناصـر هـي الإنسان ، والتراب ، والزمن ، ولكن لابد من أن يزكـيها العـامل الأخلاقي ، وبدون هذا العامل يوشك أن تتمخض العملية عن كومة لا شك لها متقلبة عناصره عن أن تأخذ اتجاها أو تحتفظ به ، أو أن تكـون لهـا وجهة بدلا من أن تكون كلا محددا في مبناه وفيما يهدف إليه[٣] .

ويركـز علـى أنهـا (جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجـتمع مـا أن يوفـر لكـل فرد من أعضائه جميع الضمانات اللازمة لـتقدمه[٤] ، ويـزيد ذلـك توضيحا فيجعلها (مجموع الشروط الأخلاقية والماديـة التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور مـن أطواره منذ الطفولة إلى الشيخوخة ، المساعدة الضرورية له في هذا الطـور أو ذاك من أطوار نموه[٥] ، ثم يعرفها بأنها (مجموع منسجم من الأشياء والأفكار بصلاتها ومنافعها وألقابها الخاصة وأماكنها المحددة[٦] أو هـي (مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي - البيولوجي - حيث ينشأ

(١) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي . مالك بن نبي ص٤٩ بسام بركة ط. دار الفكر ١٩٨٦م .
(٢) تأملات . مالك بن نبي . ص١٩٨ ط. دار الفكر ١٩٨٥ .
(٣) تأملات . مالك بن نبي . ص١٩٨ ط. دار الفكر ١٩٨٥ .
(٤) مشكلة الأفكار ص٥٠ .
(٥) آفاق جزائرية . مالك بن نبي ص٣٨ ط. مكتبة النهضة بالجزائر بدون تاريخ .
(٦) فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج . ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ص٧٩ .

وتقوى هيكلها وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها[١] ، وواضح أن مالكا لا يحصر المفهوم الحضاري في الأشياء والمجالات المادية كما لا يقصره على القيم والجوانب المعنوية وإنما هي مجموع متفاعل منهما ومن المهم معرفة أن مالكا يجعل - الفكرة الدينية - على حد تعبيره هو - هي الفاعلة في البناء الحضاري للإنسان ، وإذا فقدت فاعليتها توقفت حضارة الإنسان ويعود القهقرى[٢] .

الحضارة في الاصطلاح الغربي :

ظهرت كلمة حضارة Civilization في القرن الثامن عشر الميلادي، ويحدد بعضهم العام الذي ظهرت فيه بسنة ١٩٣٤م[٣] ، ثم تطورت الاشتقاقات منها مثل محضر في القرن التاسع عشر ، إلى أن أريد بها المعنى المراد منها ، وتعددت نظرات علماء الغرب وفلاسفته ومفكريه للحضارة ، فها هو أوسولد شينجلر[٤] يرى أن جوهر الحضارة الإنسانية يتمثل في الجانب الباطني والروحي ، فهو يقول (إن حيوية الإنسان الحضاري تتجه في مجراها إلى الباطن ، بينما تتجه حيوية الإنسان المدني إلى الخارج[٥] ، كما أن جانب الوجدان عنده يمثل دستور الحضارة والعقلانية المتجردة إنما هي فلسفة مدنية لا حضارة (إن الدستور الحضاري لا يعتمد العقل أبدا بل إنه يعتمد الوجدان هذا الوجدان الممثل في الشعور لا بالحس ، وأن العقلانية في شتى مذاهبها هي فلسفة مدنية لا حضارة ..)[٦]

---

(١) شروط النهضة . مالك بن نبي . ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ط دار الفكر ١٩٨٦م ص٤٣ .
(٢) أنظر هذا المعنى مفصلا في كتابه مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي .
(٣) جغرافيا الحضارات . رولان بريتون تعريب د/ خليل أحمد خليل ص١٩ منشورات عويدان . بيروت ، باريس ، سلسلة عام ٢٠٠٠م سنة ١٩٩٣م ط الأولى .
(٤) عالم ألماني ولد في سنة ١٨٥٦ن وتوفى في ١٩٣٦م من أشهر كتبه " تدهور الغرب " أو " تدهور الحضارة الغربية " وقد أحدث ضجة كبرى .
(٥) تدهور الحضارة الغربية ج١ ص٩٧ .
(٦) السابق ص١٤ .

كما أن شينجلر يفرق بين الثقافة والحضارة ، فالأولى عنده تميز مراحل الصعود والارتقاء بينما الثانية تميز مرحلة الانحطاط ، وإن كانت الثانية تعقب الأولى وبمثل الحضارات بالكائنات الحية فهي قابلة للموت .

إن مرحلة (الحضارة) بالمعنى " الشينجلري " هي إذن مرحلة غسقية كسوفية تعلن نهاية الدور ، بعد مرحلة الثقافة الدفاقة الأصلية الديناميكية ، مرحلة البناء والنضج ... ستأتي مرحلة الانحطاط ، هيمنة الظاهرة الحضرية والمدنية ... حيث يسود المال الترف والرياضة وإثارة الأعصاب والفن التشكيلي والمباني الفخمة ، والإفتتان بالمستوردات العجيبة والأزياء المتبذلة ، والمادية ، وانحطاط الفكر المجرد إلى فلسفة احترافية في قاعة المطالعة ، وإلى مختصرات ، والشعور بنهاية العالم ...)[١]

وهذه المعاني التي وصل إليها هذا الألماني متوافقة إلى حد ليس بيسير مع ما قرره العلامة ابن خلدون من مئات السنين . ولا شك أن اللاحق يتأثر بالسابق .

الحضارة عند (ول ديورانت)[٢] :

يرى أن الحضارة (نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي) وتتألف الحضارة عنده من عناصرها الأربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ..)[٣]

الحضارة عند روبرت :

أما روبرت فإنه يعرف الحضارة بأنها : (مجموع الظواهر الاجتماعية والدينية ، والأخلاقية ، والجمالية ، والعلمية ، والتقنية ،

---

(١) أنظر جغرافيا الحضارات ص٢٤ .
(٢) مؤلف أمريكي معاصر . يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلدا واحدا من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية . ومن كتبه كذلك (قصة فلسفة) .
(٣) قصة الحضارة . ول ديورانت ط ص٤ .

المشـــتركة فـــي مجـــتمع كبير أو في جملة مجتمعات)[١] ٠ وتمثل الثقافة (مجموعة الجوانب الفكرية لحضارة ما) أو هي الثقافة (مجموع الأفكار – المعتقدات – والعقائد الخاصة بعصر ، بمجتمع أو بطبقة)[٢] .

الحضارة كما جاءت في قاموس (لالند) الفلسفي :

الحضـــارة هـــي : مجموعة معقدة من الظاهرات الاجتماعية ذات طبيعة قابلة للنقل ٠ تضم طابعا دينيا وخلقيا وجماليا وتقنيا وعلميا مشتركة بين جميع أجزاء مجتمع واسع جدا أو عدة مجتمعات متصلة[٣] .

الخلاصة :

إن الحضـــارة تتمثل في عدة جوانب وأركان لا ينفصم بعضها عن بعـــض ٠ الجانب الأول : العقيدة الدينية ، الثاني : القيم الأخلاقية ٠ الثالث : الثقافة (بمعناها الشامل) الرابع المدنية .

وتقوم الحضارة على الإنسان وحركته العملية والفكرية ، فهذا هو الأصـــل فـــي كـــل حضارة مع عنصر الأرض والزمن ٠ ولا يجهل أثر التشريع في الإنتاج الحضاري .

(١) نقلا عن جغرافيا الحضارات ص٣٢ .
(٢) نفس المرجع .
(٣) قاموس الحضارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية د/ سامي ذبيان ، وآخرون ص٢٠٨ ط رياض الريس لندن والنشر ط الأولى ١٩٩٠م .

ظاهرة التأثر الحضاري عند الأمم

من الحقائق التي لا مراء في ثباتها أن هذا الكون بما فيه ومن فيه محكوم بقوانين وسنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل .

وقـــد نـــبه القرآن إلى كثير من هذه السنن الربانية التي يقوم عليها هـــذا الكـــون مـــن الذرة إلى المجرة ٠ وإعمال النظر في مسيرة التاريخ البشـــري للأفـــراد والمجتمعات والأمم يهدي إلى الكثير من هذه السنن ٠ ولعلماء الإسلام قديما وحديثا جهود في هذا الشأن[١] .

ومـــن هـــذه السنن : أن الناس مختلفون ٠ ونتيجة لهذا الاختلاف يؤثر بعضهم في بعض ويتأثر بعضهم ببعض .

وهذا التأثير والتأثر على المستوى الفردي والجماعي ، فهو يظهر في الأفراد والمجتمعات والدول والأمم .

ولا يقـــف هـــذا التأثر عند الماديات فقط ٠بل يتجاوز عالم الأشياء إلى عالم الأفكار حتى كاد أن يكون هذا التأثر سنة ثابتة إن لم يكن كذلك٠ إن تـــنوع الأجناس البشرية واختلافها في القوة والضعف واختلاف أفرادها وشـــعوبها ودولهـــا فـــي القوة والضعف ٠ واختلاف مبادئها وحضاراتها وفكرها وسياستها وثقافتها في القوة والضعف ٠ قانون في الوجود ٠ وهذا الاختلاف في القوة والضعف جعل التاريخ البشري متفاعلا.

(فالحضـــارة القويـــة تهيمن على الحضارات الضعيفة وتعدمها ٠ والإنســـان القـــوي يسيطر على الإنسان الضعيف ، والجنس القوي يهيمن على الجنس الضعيف ، والجماعة الحضارية القوية تهيمن على الجماعات الحضارية الضعيفة وهكذا)[٢] .

والعلامـــة ابن خلدون يؤصل ذلك ويذكر أسبابه ويضرب مثالا له فـــيقول فـــي مقدمته الرائعة في الفصل الثالث والعشرين :- لأن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده والســـبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه٠٠ حـــتى أنـــه كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا

(١) ابن خلدون ، وشيخ الإسلام بن تيمية ، والإمام محمد عبده والإمام محمد رشيد رضا والشيخ محمد الغزالي ود/ عبد الكريم زيدان وغيرهم .
(٢) أنظر نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار ٠ د/ أحمد العماري ص٢٠ المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

التشبه والاقتداء حظ كبير ٠ كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجولقة فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ٠ حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله)[1] ٠ وقد كان ولا خول ولا قوة إلا بالله .

والأمة الإسلامية لما كانت قوية - وقوتها أبدا مستمدة من عقيدتها وقيمها - كانت مؤثرة في الغير ٠ فلما ضعفت تأثرت بغيرها ٠ ولا عاصم إلا بالتمسك بدينها .

لقد أخذت الأمة الإسلامية من حضارات الأمم السابقة ما يفيدها ويدفع في تطور الأفكار والمعارف والخبرات الإنسانية بمعايير إسلامية مأخوذة من عقائد الإسلام وتشريعاته وأخلاقه ٠ فطلب العلم في الإسلام فريضة ٠ والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ، فانطلقت الحضارة الإسلامية من عقيدة صافية حركت في الإنسان طاقته بعد أن حررته من أسره ، ووضعت عن عقله الأغلال التي كان يرزح تحتها .

وأثرت هذه الحضارة الإسلامية في المجتمعات الأخرى تأثيرا بالغا عم نفعه وخيره على الإنسانية .

وتألقت هذه الحضارة حتى بلغت مبلغا عظيما في الوقت الذي كانت فيه عصور الظلام تكسو المجتمعات الغربية المسيحية ٠ حيث كانت الكنيسة بتعاليمها البالية - والمهدرة للعقل وإعماله - سيفا مسلطا على الناس خاصة أهل العلم والفكر .

ثم انتصرت العقول على الكنيسة بعد دفع الثمن في ما عرف بمحاكم التفتيش وأخذت هذه العقول تنهل من المعارف الإسلامية والمصادر العربية حتى قامت نهضة فكرية وعلمية في مجالات متعددة ٠ الحق أنها أخذت عن الحضارة الإسلامية .

ولم يعرف التاريخ دينا سريع التأثير في الآخرين كالإسلام ٠ ولم يكن تأثيره حضاريا فقط بل شمل الإنسان كله في جميع أطواره وأينما وجد كما لم يترك هذا التأثير جزئية في مجال من مجالات الفكر والحياة .

حيث (صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ٠ كما تأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع ، وبدأت

---

(١) أنظر المقدمة لابن خلدون ص١٤٧ .

مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتغلغل في الأحشاء ، وبدأت قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة ٠ والظهور بمظاهره) (وكانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويدا إلى الإسلام ٠ ولا يشعر أهلها بسيرهم ، كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، ويظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي مدينتهم وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتنم عن الحركات الإصلاحية فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين)[1] ٠ ولاشك أن وراء هذا التأثير الإسلامي أسبابا تتمثل في طبيعة الإسلام وعقائده وتشريعاته .

وثانيا : في أتباعه وحملته ٠ حيث جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ٠ قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ٠٠)[2]

عوامل التقدم والتأثير الحضاري في ضوء الإسلام :

العامل الأول : العقيدة الإسلامية :

تميز العقيدة الإسلامية بمزايا عديدة نذكر منها :

أ : موافقتها للعقول وعدم تصادمها مع قوانين الفكر ٠

فالعقيدة الإسلامية في كل مسائلها تقرها العقول السليمة الحرة من المؤثرات ٠ وذلك حيث إن العقيدة الإسلامية عقيدة ربانية ٠ ولذلك لا تجد تعارضا - ولا شبه تعارض - بينهما لأن كلا منهما - العقيدة والعقل - منحة ربانية .

والتاريخ الفكري للبشر يجلي هذه الحقيقة ٠ فقد حارت عقول كثيرة في فهم عقائد سابقة - إما أنها باطلة وإما أنها حرفت حتى صارت أسوأ من سابقتها - مما جعل أهل الفكر في عصور متطاولة يعكفون على مائدة البحث والتوفيق - أو بالأحرى لعقد مصالحة - بين الدين - أو ما يسمى عنهم بالدين - والعقل !!

---

(١) أنظر ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي ص١٣٧ ط. دار القلم ٠ الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٢م ٠ (الكويت) .

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .

أمـــا عقائد الإسلام – بل الإسلام كله – فلم يحدث – ولن – خصام أو شـــبهة لـــدى العقـــول الراشدة ٠ فإنها – العقول – مصدر من مصادر الاستدلال على مسائل العقيدة – كما هو موضح في منهج أهل السنة خلال كـــتاباتهم العقلـــية الكثيرة والمتنوعة ٠ ومن نافلة القول أن أدلة الوحي – قـــرآنا وسنة – مع كونها شرعية فإنها عقلية أيضا ٠ فالعقل دائما يدل على صـــدق النقل ، فهما وسيلتان لغاية واحدة مشتركة هي الوصول إلى الله ، وفهـــم مراده ، فكيف بوسيلتين هما هبة الله ولهما غاية واحدة أن يتعارضا فضلا عن أن يتناقضا ؟

قـــال شـــيخ الإسلام بن تيمية – رحمه الله – (المنقول الصحيح لا يعارضـــه معقـــول صريح قط ، وقد تأملت ما تنازع فيه الناس فوجدت ما خـــالف النصوص الصريحة شبهات فاسدة بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثـــبوت نقيضـــها الموافق للشرع ، وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار ، كمســـائل التوحيد والصفات ، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك ، ووجـــدت مـــا يعلم بصريح العقل لم يخالفه السمع ، وإنما الذي يخالفه إما حديـــث موضوع أو دلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضـــة العقـــل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول)[١] ٠ ففي الجملـــة : النصوص الثابتة في الكتاب والسنة لا يعارضها معقول قط ولا يعارضها إلا ما فيه اشتباه واضطراب ، ما علم أنه حق لا يعارضه ما فيه اضـــطراب واشتباه لم يعلم أنه حق بل نقول قولاً عاماً كلياً : إن النصوص الثابـــتة عن الرسول – ﷺ – لم يعارضها قط صريح معقول – فضلا عن أن يكـــون مقدمـــاً عليها – وإنما الذي يعارضها شبه وخيالات مبناها على معـــان متشـــابهة وألفـــاظ مجملة فمتى وقع الاستفسار والبيان ظهر أن ما عارضها شبه سوفسطائية لا براهين عقلية ٠٠٠)[٢]

(١) أنظر كتاب موافقة المعقول لصحيح المنقول ٠ لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨٣/٨٧ بهامش كتابه منهاج السنة ٠ ط. المكتبة العلمية ببيروت بدون تاريخ وللإمام جهود كبيرة في كتابه هذا وغيره ككتاب درء تعارض العقل والنقل .

(٢) نفس المصدر السابق .

وثاني هذه الميزات أنها عقيدة فطرية .

فالتوحيد فطرة فطر الله الناس عليها ٠ والفطرة تعني أصل الخلقة أي أن الله خلـــق الـــنفوس مجبولة على التوحيد ٠ فكل ما خالفه ما هو إلا انتكاس للفطرة وتبديل لها .

ولقد جاء خطاب القرآن الكريم للفطرة مثيرا لها ومذكرا بما استقر فـــيها وركب في طبيعتها من الإيمان بالله الواحد ومعرفته ٠ يقول سبحانه وتعـــالى : (فـــأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[١]

والآيـــة تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة ٠ ولكن نفس الفطرة التي فطر الناس عليها ٠ ولأهل العلم في المراد من الفطرة قولان ينتهيان إلـــى نتـــيجة واحـــدة ٠ القول الأول : أن المراد بها الإسلام ، وهذا قول جماعـــة مـــن أهـــل العلم منهم الكرخي والزمخشري وجملة من الصحابة والخلـــف ٠ والقـــول الثاني : أن المراد : قابلية الدين الحق والتهيؤ له ٠ وقيل هي الحنيفية التي وضعت الخلقة عليها ، وقال به الخازن[٢] .

قـــال الإمـــام القرطبـــي – رحمه الله – : اختلف العلماء في معنى الفطـــرة في الكتاب والسنة على أقوال منها الإسلام ، قاله أبو هريرة وابن شـــهاب وغـــيرهما ، قـــالوا : وهو المعروف عند عامة المسلمين من أهل الـــتأويل ٠٠٠٠ وقـــال آخرون : الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله تعالى علـــيها ٠ أي علـــى ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والســـعادة والشقاوة ما يصبرون عليه عند البلوغ ٠٠ وقال طائفة من أهل الفقـــه والنظر : الفطرة هي الخلقة خلق عليها المولود في المعرفة بربه ٠ فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه ٠ وقال ابن عطية : والـــذي يعتمد عليه في تفسير هذه النقطة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به ٠ ومنه قوله – ﷺ – : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه)[٣] .

(١) الروم الآية (٣٠) .
(٢) أنظر هذه الأقوال في الفتوحات الإلهية ٠ ج٣ ص٣٩١ ٠ ط الحلبي .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين حديث رقم ١٣٨٥ بترقيم فتح الباري ومسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة بلفظه ٠ حديث رقم ٢٦٥٨.

قال الشيخ سليمان العجيلي عن شيخه : إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم قابلة للحق كما خلق أسماعهم وأبصارهم قابلة للمسموعات والمرئيات فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الإلهية أدركت الحق وديـن الإسلام وهو الدين الحق ، وقد دل على صحة هذا المعنى قوله - ﷺ - في الحديث : (٠٠ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هلى تحسون فيها من جدعاء) يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سيما من الآفات فلو ترك على أصل تلك الخلقة لبقى كاملا بريئا من العيوب لكي يتصرف فيه فتجدع أذنه ويوسم أنفه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل وكذلك الإنسان وهو تشبيه واقع ووجهه واضح[١] .

ونتيجة هذه الأقوال : أن الإنسان يولد على الحق مهيئا لقبوله ومستسيغا له وينتهي به ذلك إلى الإسلام فهو أحق الحق وأظهره ٠ وهذا القدر يستطيع جميع بني البشر وهو ما يعرف بالإيمان الغريزي إلا أنه من المتفق عليه أن هذا الإيمان الغريزي لا يكفي المكلف .

وفطرية التوحيد قال بها كثير من مشاهير الباحثين والعلماء المتخصصين في علم النفس والإنسان والأجناس ٠ يقول الدكتور دراز : إن نظرية فطرية التوحيد وأصالته قد انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ومن أشهر مشاهيرهم لانج الذي أثبت عقيدة وجود " الإله الأعلى " عند القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا ، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، وبروكلمان الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام ٠٠٠ وغيرهم ، وقد انتهى بحث شميدت إلى أن فكرة - الإله العظيم - توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية[٢] ، ويستطيع الإنسان معرفة فطرية الإيمان بالله من ملاحظة سلوك الأطفال في مسائل الدين والاعتقاد وهذا أمر مشترك بين الأطفال جميعا في كل الشعوب والأمم[٣] .

ومن أروع البيان في ذلك بيانه - ﷺ - ومنه ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار - رضي الله عنه - أنه سمع رسول

(١) أنظر حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ٣٩١/٣٩٢ بتصرف .
(٢) الدين د/ محمد عبد الله دراز ص ١٠٧/١٠٨ ٠ الكويت سنة ١٣٩٠هـ .
(٣) من الأبحاث التي اهتمت بهذا الجانب (تطور الشعور الديني عند الطفل د/ عبد المنعم الملجي)

الله - ﷺ - يخطب ويقول : (يقول الله:إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ٠٠)[١].

فهذا النص وغيره يدل دلالة أكيدة صريحة على أن الإسلام عقيدة وشريعة هو دين الفطرة .

ومن خصائص هذه العقيدة أيضا أنها سهلة وميسرة تغزو القلوب بسرعة ويستجيب لها الناس عموما ويدلك على ذلك تتبع تاريخ دعوة الإسلام من يومها الأول إلى عصرنا هذا .

(١) كتاب الجنة باب صفة أهل الجنة والصفة التي يعرف بها أهل الجنة حديث رقم ٢٨٦٥ .

أثر عقيدة الإسلام في الإنسان والحياة :

أولا : التحرر الإنساني العقلي والوجداني .

وأعني بذلك أن الإنسان المسلم متحرر من كل أنواع العبودية وأشكالها فهو عبد لله فقط ، وليس لأي قوة أخرى عنده نوع من الخضوع والتذلل إلا لله فهو الخالق وهو المحي وهو المميت والرازق وهو الذي يدبر حركة الكون وله الأمر كله . ومسائل الخلق والإحياء والصحة والمرض والإماتة والأرزاق والوظائف والمستقبل .. الخ هي أسباب الخوف والذل والخضوع غالبا لدى الإنسان . ويفعله الإنسان اللهم إلا المؤمن . حيث إن عقيدته فسرت له هذه الأمور تفسيرا صحيحا حقيقيا فأزالت الخوف وبددت الذل وأزاحت الخضوع فأصبح بعقيدته آمنا مطمئنا عزيزا كريما قوي النفس شامخا .

إنها العقيدة التي تجعل الإنسان يتحرر تماما من أي إسار تفرضه اعتبارات الأرض أو تختلقه أهواء البشر فهو يتحرر من سلطان الجبابرة والطواغيت التي تسترق الإنسان بمصالحها الجامحة ، ويتحرر كذلك من ربقة المغريات التي تستذل الإنسان وتهبط به إلى دركات الحطة والمهانة وذلك كخضوع الإنسان لشهوات المال والجنس والتسلط والتملك فإنه صريع هذه المغريات إذا ما وهن إيمانه فيتحول إلى عبادة هذا الشيء .

ومن جوامع الكلم في ذلك قوله - ﷺ - (تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة تعكس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش . طوبى لعبد آخذ بخطام فرسه يجاهد في سبيل الله إن كان في الساقة كان في الساقة وإن كان في الحراسة كان في الحراسة)[1] وعلى ذلك فإن المسلم يتحرر لمشاعره ووجدانه وإحساسه من أي سلطان أو هيمنة أو رهب دون الله وذلك هو التحرر الوجداني المطلق الذي يستشعره المسلم وهو مدبر عن قوى الأرض واعتباراتها وتصوراتها ليمضي بقلبه وفكره وحسه في مسار الله ومنهجه ودينه[2] . ولا شك أن المسلم لا يكون إيمانه إلا تحرر وجدانه وتحررت عاطفته تمام التحرر فلا يكون فيها إلا

---

(١) أخرجه البخاري في جامعه الصحيح في كتاب الجهاد والسير ، باب الحراسة في الغزو حديث رقم ٢٨٨٧

(٢) أنظر دراسات في الثقافة الإسلامية د/ أمير عبد العزيز ص٦٥ ط الأنصار

الله وما جاء عنه وفي هذا المعنى يقول النبي - ﷺ - : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1] .

كما أن هذه العقيدة تعطي الإنسان تفسيرا وتصورا صحيحا عن هذا الكون كله وعن الحياة كلها مما يؤدي إلى تحرر العقول من الأغاليط والشعوذات الفكرية كما تخلصها من الحيرة الفكرية والتردد والارتياب العقلي والفكري وبذلك يتنزه عن كل ما يشتت البال ويشوش الأفكار (وإن كان الأثر العقلي الأول الذي يترتب من هذه العقيدة على الإنسان هو أن العالم كله تابع لمركز ونظام واحد ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطا ظاهرا ووحدة في القانون ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسير كامل للحياة وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمة وبصيرة)[2] .

إنها تحرر العقل من سلطان الخرافة والوهن والجمود والتقليد وملاك الأمر في هذه القضية أن توحيد الله تبارك وتعالى هو مفرق الطريق في حياة الإنسان بين ما يجب أن يكون عليه من رعاية للعمل العقلي السليم والمنطق السديد الذي يحقق الدقة والنظام في أخطر شأن من شئون البشر وهو العقيدة وبين ما لا ينبغي له ولا يليق به من استخفاف بما يحكم به العقل السوي ، وما يحمله عليه المنطق الصحيح وما يؤدي إليه الاستخفاف من اضطراب وفوضى في العقيدة بسبب الانسياق وراء الخرافات الباطلة والأوهام الزائفة التي يأباها العقل ويرفضها المنطق... ومن هنا كان توحيد الله تبارك وتعالى هو حقا مفرق الطريق بين النظام والفوضى في حياة الإنسان عقيدة وسلوكا ونظما ذلك أن توحيد الله عز وجل هو وحده الذي يحرر العقل الإنساني من التعطل المزري والانسياق وراء الأوهام والأهواء والخرافات والأساطير الغامضة الباطلة[3] .

---

(١) ذكره البخاري في كتاب قرة العينين برفع اليدين في الصلاة ص٣٨ ط دار الأرقم بالكويت ١٤٠٤هـ وقال النووي عنه حديث حسن صحيح . أنظر جامع العلوم والحكم ص٣٩٣ ط الرسالة .

(٢) انظر الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية لأبي الحسن الندوي ص١٩ ط دار الصحوة .

(٣) انظر لمحات في الثقافة الإسلامية د/ عمر عوده الخطيب ص٢١٦ ط. مؤسسة الرسالة سنة ١٤١٢هـ .

ثالثا : العقيدة قوة دفع للإنسان .

إن العقيدة الإسلامية ليست مجرد جدل علمي كلامي فلسفي ، كلا وإنما هي كيان يملأ قلب المؤمن وروحه ونفسه بالإيمان بالله وحبه ومراقبته في السر والعلن وهي بذلك دافع للسلوك الصالح المرضي وللعمل الطيب النافع وفي نفس الوقت تمثل حاجزا يحجب الإنسان عن السلوك المشين الفاسد والمفسد ، وتجعله إن لم يتمكن من فعل الخير يحرص عليه ويدعو إليه ، وينويه مرارا وتكرارا وعلى كل حال .

وهذه العقيدة وهذا الإيمان بالله يجعل المسلم ثابتا بالحق معتصما به متمسكا به لا يحيد عنه ولا يقبل سواه ولا يخضع لجبروت الباطل المادي ولا شبهاته الفكرية فإنه على الحق الناصع والصراط الواضح والسبيل المستبين المستقيم . ومراقبة المؤمن لربه والتي لا تخلو منها حركته بل ولا سكونه تجعله يبذل كل ما في وسعه وإمكانه ليصل بذلك إلى درجة الإحسان والذي عبر عنه - ﷺ - بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١] .

وإيمان المؤمن بالقضاء والقدر عافية تذيب عنه جليد اليأس والقنوط ، وتجعله صلبا أمام محن الحياة لا يستكين لها ولا يعجز عن مدافعتها ، وإنما يتصبر ويدافع القدر بالقدر ويفر من القدر إلى قدر آخر (فإن الله إنما يولم على العجز)[٢] .

إن الإنسان يحمل خيرا وشرا ، وقوة الخير الفطرية في الإنسان في حاجة لما ينميها ويقويها حتى لا تضعفها الأهواء ولا تفترسها الشهوات وحتى تكون سدا يقي الإنسان دواعي الشر والفساد وطغيانه المدمر ، وليس من شيء يمد ويقوي جانب الخير في الإنسان سوى العقيدة الحقة التي من الله بها على عباده إنها هداية تربي الإنسان وتتعهده ليؤدي وظيفته في الحياة كما أراد خالقه على أكمل وجه وأتمه .

---

(١) البخاري كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي - ﷺ - عن الإيمان والإحسان حديث ٥٠ ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان حديث ٨ .

(٢) هو حديث أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأقضية باب الرجل يحلف على حقه حديث ٣٦٢٧ ، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، مسند الأنصار مسند عوف بن مالك الأشجعي حديث ٢٣٤٦٣ .

والعقيدة الإسلامية - ثالثا - تسمو بالنفس الإنسانية وترتقي بها مدارج الفضيلة والكمال الإنساني ، وهي - رابعا - مفجرة لطاقات الإنسان موظفة لها في مجالات الخير في كل جوانب الحياة ، السرية والعلنية ، والفردية والجماعية ، والسلمية والحربية ... الخ كما أنها - خامسا - قوة هدم لكل زيف وباطل وخور إنساني ، وقوة بناء لكل حق وجميل من مثل وقيم ومبادئ[١] .

إن عقيدة لا إله إلا الله منهج حياة فاضلة ومولد حضارة فائقة عادلة .

العامل الثاني : العبادات الإسلامية :

تمثل العبادات الإسلامية عوامل بعث حضارية . فهي في الحقيقة ليست أفعالا ولا حركات غير مفهومة ولا غير معقولة ، بل هي أقوال وأفعال مخصوصة وفي أوقات محددة ، وأزمان معينة ، وبعضها في أماكن مخصوصة ، وبكيفية موصوفة ، وأعداد مضبوطة ، ولا تصح هذه العبادات بمخالفة شيء من ذلك كله .

ولهذه العبادات آثارها الكبيرة في الإنسان صانع الحضارات فهي أولا : تعلم المسلم الانضباط في حركة حياته وتصرفاته وأقواله وأفعاله ، ولا شك أن هذا الانضباط الكلي - الذي هو أثر من آثار العبادات في لإسلام أساس مهم من أسس التحضر والتقدم . ولو عقل المسلم الصلاة التي يؤديها على الأقل خمس مرات في اليوم والليلة لكان أكثر الناس انضباطا في العالم . حيث يدخل الصلاة في وقت محدد . لو تقدمه لبطل، ولو تأخر عنه فكذلك[٢] . فالله سبحانه وتعالى يقول (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)[٣] أي فرضا موقتا . قال مجاهد : وقته الله عليهم فلابد من إقامتها في حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح[٤] أي

---

(١) انظر لمحات في الثقافة الإسلامية . ص ٣٥٨ . عمر عوده الخطيب .

(٢) هناك حالات تقديم وتأخير - تمثل الاستثناء . كجمع الصلاتين في السفر ، أو المرض - وتفصيل ذلك في كتب الفقه .

(٣) النساء الآية ١٠٣ .

(٤) انظر حاشية الجمل ج١ ص ٤٢١ .

جعلها الله فرضا محددا لأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال[١] .

وقال عمر : " الصلاة لها وقت شرطه الله تعالى لها لا تصح إلا به "[٢] . وكذلك يدخل المسلم الصلاة فلا يباح له أن يتكلم بكلام خارج عن الصلاة وهذا يؤدي إلى تعويده على ضبط حركة لسانه . وكذلك بقية جوارحه لا تتحرك إلا حركات الصلاة ، وهذا يعوده على ضبط أفعاله . والصلاة تعويد للمسلم على النظام فهو في صف مع إخوانه متساو معهم لا يتقدم عنهم ولا يتأخر ، ولا يترك فرجة في الصف ، كما تعود الصلاة المسلم أن يكون في المقدمة وتدعوه وتنشطه ليكون الأول قبل غيره . ففي الحديث (خير صفوف الرجال أولها ...)[٣] . وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ...)[٤] .

وكذلك سائر العبادات تعلم المسلم وتعوده الانضباط في أقواله وأفعاله ، فعبادة الصيام توجب عليه الإمساك عن الأكل والشرب وشهوة الفرج في وقت محدد يبدأ بطلوع الفجر وينتهي بغروب الشمس . قال تعالى : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ...)[٥] .

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل – للبيضاوي . ص ١٢٥ ط المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ .

(٢) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور . للسيوطي . عند تفسيره لهذه الآية .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها .. حديث ٤٤٠ ، كما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الآذان باب الاستهام في الآذان حديث ٦١٥ ومسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصلاة ٤٣٧ .

(٥) البقرة الآية ١٨٧ .

والحج كذلك في أشهر معلومات وأيام معدودات وأماكن محدودات . كما قال الله تعالى (الحج أشهر معلومات)[١] وقال (اذكروا الله في أيام معدودات)[٢] . وكون الحج في أماكن محددة ، فالطواف يكون حول الكعبة المشرفة " البيت العتيق " ، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة ... الخ . كل هذا تعويد لمسلم لضبط حياته .

ثانيا : العبادات تزكية للنفوس وتطهيرها :

إن مقاصد العبادات المنصوص عليها في الكتاب والسنة تزكية النفوس وتطهيرها من الفحش والدنس . ففي الصلاة يقول سبحانه وتعالى : (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...) ..... . حيث إنها سبب للانتهاء عن المعاصي .

من حيث إنها تذكر الله وتورث النفس خشية منه . روى أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله – ﷺ – الصلوات ، ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصف له – " حال الشاب " – فقال : إن صلاته ستنهاه فلم يلبث إلا أن تاب[٣] . وتنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر لأنها مناجاة لله تعالى فلابد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلي عن معاصيه . قال ابن مسعود وابن عباس – رضى الله عنهما – : في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا ، والصلاة لها هذا التأثير لأنها تشغل جميع بدن المصلي . فإذا دخل المصلي في محرابه خشع وأخبت لربه وتذكر أنه واقف بين يدي مولاه وأنه مطلع عليه وأنه يراه فصلحت نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت

---

(١) البقرة الآية ١٩٧ .

(٢) البقرة الآية ٢٠٣ .

(٣) انظر البيضاوي ص ٥٣٠ ، وذكر القصة أبو السعود الخازن وغيرهما عند تفسير الآية (٣) انظر حاشية لجمل ج٣ ص٣٧٧ بتصرف يسير .

علـى جوارحـه هيئتها ولو بعد خروجه منها ولم يكد يفتر عن ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله[١] .

وهكذا الزكاة لها في تزكية النفوس مقام كبير فقد قال الله عز وجل في ذلك : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٢] . والمقصود تطهير النفس من الذنوب وأسبابها ، ومن أسباب حب المال الذي قد يعمي صـاحبه عـن الحـق ويجـره إلى مهاوي الضلال[٣] . قال البيضاوي : (وتزكـيهم بها) وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين)[٤] وليسـت الـزكاة تطهيرا للنفس فقط من الشح والبخل ، بل هي تعويد على البذل والعطاء ، وتولد لدى المسلم العناية والاهتمام بالآخرين خاصة ذوي الحاجات والعاهات وهي في الحقيقة تمثل التكافل الاجتماعي . ولم يعرف العـالم حتى عصرنا هذا - تشريعا يجعل حق كفاية المحتاجين واجبا على الدولـة تقاتل مانعه كما حدث في عهد أبي بكر - ﷺ - لم يعرف هذا إلا في التشريع الإسلامي ، ولم يذكره التاريخ إلا للدولة الإسلامية .

وكمـا تزكى الزكاة نفوس الأغنياء فإنها تطهر نفوس الفقراء أيضا مـن الحقد والحسد وترتقي بها إلى تنمي وحب الخير للآخرين حيث ينالهم مـنه . فكـأن الزكاة أحد العوامل الاقتصادية المهمة التي تقي المجتمعات شر صراع الطبقات .

---

(١) وصلاة المسلمين في المسجد جماعة خمس مرات واجتماعهم لهذا الغرض له أكبر الأثر في رفع مستواهم الأدبي والأخلاقي .. وضلع في عظمتهم ومجدهم ، فالصغير يقلد الكبير والعالم يرشد الجاهل والغني يواسي الفقير والكل يسعى لمرضاة الله ... وقد قيل إن للأخلاق تأثيرا في جميع أطوار الحياة فأخو الفضائل يرفع من حوله وأخو الرذيلة يحط من فضائلهم وينتقص من أخلاقهم غير شاعر ... قال بعضهم : إن فردا صالحا محبا للخير خير من مائة ألف ممن لا خلاق لهم ...) انظر أركان الإسلام الخمسة وأثرها في حياة الأفراد والجماعات ص٨٢ د/ يحيى الدرديري ، نقلا عن منهج القرآن في تربية المجتمع ص١٩٧ د/عبد الفتاح عاشور ط مكتبة الخانجي بمصر .

(٢) التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) انظر في ظلال القرآن عند تفسيره للآية .

(٤) انظر أنوار التنزيل ص٢٦٦ .

ونجاح الزكاة في التقليل من التفاوت الطبقي وتحقيقها للتقارب بين طبقات المجتمع من شأنه أن يخلق جوا من الأمن والطمأنينة يسود المجتمع ويزيل ما يكون قد ترسب في النفوس من حقد أو حسد بين طبقاته .

والنتـيجة التي تترتب على ذلك هي إشاعة الأمن بين الناس وقلة الجرائم خاصة المالية منها[١] .

وكل هذه الآثار الطيبة - وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره - يدفع عجلة التحضر ويرقى بالمجتمعات .

وأمـا الصوم فإنه مدرسة تربية النفوس وتهذيبها والارتقاء بها في مدارك الرقي والتدرج بها نحو الفضائل والشمائل الإنسانية الرفيعة .

قـال سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[٢] أي تتقون المعاصي فإن الصوم يكسـر الشـهوة التي هي مبدأها كما قال عليه الصلاة والسلام (.. فعليه بالصـوم فـإن الصوم له وجاء)[٣] أي فإن الصوم قاطع عنه الشهوة[٤] . يقـول الشـيخ محمود شلتوت - رحمه الله - : (وليست التقوى هو ذلكم اللـون الشـاحب ، أو الصوت الخافت أو الرقبة المنحنية ولا هي الهمهمة بكلمـات تعـرف التسبيح والتهليل ولا الهذرمة بآيات تقرأ أو تتلى . وإنما التقوى ذات عنصر سلبي يمنع من فعل الشر للنفس والغير . ولهذه التقوى التـي لا يعرف القرآن سواها فرض الله الصوم وجعله مددا للإيمان ، وبها كـان الصـوم عنصرا قويا من عناصر تكوين المجتمع في نظر الإسلام ومنهجه[٥] .

---

(١) انظر النظام الاقتصادي في الإسلام . د/أحمد العسال و د/فتحي عبد الكريم ص١١٧ ط مكتبة وهبة ١٤٠٠هـ

(٢) البقرة آية ١٨٣ .

(٣) انظر أنوار التنزيل . ص٣٨ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم . باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة .

(٤) الوجاء في الأصل من وجأ . وهو رض عروق البيضتين حتى تنفتح فيكون شبيها بالخصاء . انظر مادة وجأ في لسان العرب ، ومختار الصحاح .

(٥) انظر منهج القرآن في بناء المجتمع للشيخ / محمود شلتوت . ص١٣٢ نقلا عن منهج القرآن في تربية المجتمع د/عبد الفتاح عاشور .

ويقـول الشيخ محمد عبده - رحمه الله - عن الصوم (الصوم يعد نفـوس الصـائمين لتقوى الله تعالى ويظهر ذلك من وجوه كثيرة أعظمها شـأنا وأنصـعها برهانا وأعظمها أثرا وأعلاها خطرا أنه أمر موكول إلى نفـس الصائم لا رقيب عليه إلا الله تعالى ، وسر بين العبد وربه لا يشرف علـيه أحد غيره سبحانه ، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التي تعرض له فـي عامـة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لإرشاد دينه مدة شـهر كـامل في السنة ملاحظا عند عروض كل رغيبة له من أكل نفيس وشـراب عـذب وفاكهـة يانعـة وغير ذلك ٠ أنه لولا اطلاع الله تعالى ومراقبـته له لمـا صـبر عن تناولها وهو في أشد التوق لها لا جرم أنه يحصـل له مـن تكـرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله تعـالى والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه - وفي هذه المراقبة مـن كمال الإيمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه ، أكبر معد للـنفوس ومؤهـل لهـا لسعادة الآخرة ٠ وكما تؤهل هذه المراقبة النفوس المتحلـية بها لسعادة الآخرة تؤهلها لسعادة الدنيا أيضا ٠٠ انظر هل يقدم من تلابس هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم ؟ هل يسهل عليه أن يـراه الله آكلا لأموالهم بالباطل ؟ هل يحتال على أكل الربا ؟ كلا ٠٠ إن صـاحب هـذه لمراقبة لا يسترسل في المعاصي إذ لا يطول أمد غفلته عـن الله تعالى وإذا نسى وألم بشيء منها يكون سريع التذكر قريب الفيء والـرجوع بالـتوبة الصـحيحة يقول جل شأنه (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)[1] .

وأمـا فريضة الحج ففيها جماع مقاصد العبادات التربوية ٠ حيث إنهـا عـبادة جامعة للبدنية والمالية ٠ إنها فريضة (جمعت مبادئ التربية كلهـا وهـي كفـيلة بما تحمله من معاني الخير والطهر أن تعيد الإنسان إنسانيته فيعود إلى دياره كما خلقه الله نقاء في الفطرة وإشراقا في السريرة وإخلاصا يملأ عليه حياته ويدفعه إلى بذل نفسه وماله في سبيل إسعاد أمته واخوته ٠ قال - ﷺ - : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[2] .

---

(١) الأعراف آية ٢٠١ ، وانظر كتاب أركان الإسلام الخمسة - بتصرف يسير ص١١٦ .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الحج باب فضل الحج المبرور بلفظ (من حج لله ٠٠) ص١٥٢١

وارتـداء المسلم زي الإحرام في شهر حرام في وفد من المسلمين إلـى ربهم ٠ وقد توحدوا في زيهم وتساووا فيه ، ومكان واحد تجمعوا فيه ولا يتمـيز الغني عن الفقير ولا صاحب المناصب عن غيره ، حيث خلعوا كـل هـذا وأصـبحوا بملابـس الإحرام متجملين بصفة الاخوة المتساوية والمتآلفة بنعمة الإسلام ٠

ومـنهج التربـية بـتحريم الـزمان والمكان شرع إلهي قديم أقره الإسـلام وربط بين المؤمنين الأولين والمؤمنين الآخرين ٠ وهو في واقعه لأهـل العصـر الواحـد فرصة تهيئ لهم حسن التفاهم والعمل على قطع أسـباب الخـلاف والتخاصم ، وعلى إقرار الأمن والسلام هو بمثابة هدنة إلهـية يـتدبر الـناس فـيها شئونهم فيعرفون مهمتهم في الحياة من حسن التعمـير وإسعاد البشرية على أسس من المحبة والتعاون وبذلك يكفون عن العـدوان وعـن الجشع المثير للحروب القاضي على الهناءة والاطمئنان ، والمفسـد لخلافـة الإنسان في الأرض) ٠ والحج يربي المسلم على أداء حقـوق الآخريـن ٠ فهـذا شرط لكل مسلم يعزم على الحج ، كما يعلمه محاسـبة نفسه فمن آداب الحج أن يفتش في نفسه هل عليه لأحد ظلامة ، سواء أكانت بدنية قولية أو فعلية ، أو مالية ، وعليه أن يتحلل من كل ذلك قبل أن يمتطي راحلته ٠

كمـا أن الحج يربي النفس على السمع والطاعة لله تعالى ولرسوله - ﷺ - ، ويطهـر النفس من درن الاستعلاء والاستكبار ٠ ويربيها على تحمل المشاق في سبيل ما يؤمن به .

" إن ذهاب عشرات الآلاف من مسلمي العالم على اختلاف بلادهم وأجناسـهم وألوانهـم ولغاتهم إلى مكة لأداء فريضة الحج له أثر بالغ في تربـية الـنفس باحتمال مشقة السفر ووعث الطريق في سبيل تحقيق المبدأ وهو رياضة الوجدان على طاعة الرحمن ٠٠٠ اجتماع الألوف المؤلفة من مختلف الأجناس البشرية الإسلامية من بقاع الكرة الأرضية بين فقير مقل وغني كبير الثراء ٠٠٠ الأبيض والأسود والأصفر والأسمر وعالم وجاهل وأمير ورفيع وصغير ووضيع في صعيد واحد بلباس واحد في وقت واحد تنفيذ لأمر الله الواحد وطلبا لغفرانه ومرضاته من أكبر الأسباب في تحقيق المساواة "[1] .

---

(١) انظر أركان الإسلام د/ يحيى الدرديري ص٣ نقلا عن منهج القرآن في تربية المجتمع د/ عبد الفتاح عاشور ص٢٢٦ .

ومـــن الآيـــات الجامعة في مقاصد الحج وحكمه ومنافعه قوله عز شأنه (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فـــج عمـــيق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير)[١] .

ولاشك أن هذه المنافع عامة دينية ودنيوية وروحية وبدنية وفردية وجماعية ٠ كما أنها تشمل الحياتين الدنيا والآخرة وذلك أنها جاءت منكرة والتنكير - كما هو معلوم - يفيد العموم .

وأفاد الزمخشري أنها نكرت (لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينـــية أو دنـــيوية لا توجـــد فـــي غـــيرها مـــن العبادات[٢] ٠ وكذا برى البيضـــاوي، فهـــو يقـــول (وتنكـــيرها لأن المـــراد بها نوع من المنافع مخصوصة بهذه العبادات)[٣] .

ومـــن جوامـــع الآيات التي ذكرت أثر العبادات في تربية النفس ، قوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخـــير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فـــي أموالهـــم حق معلوم للسائل والمحروم * ٠٠٠٠)[٤] فجنس الإنسان مطـــبوع علـــى هذه الصفات وذلك من تعجله وقصور نظره ثم استثنى الله الطائفة المصلية المزكية ٠٠ الخ وذلك لما لهذه العبادات من أثر في تزكية النفوس والله أعلم .

---

(١) الحج آية ٢٨/٢٧ .
(٢) انظر حاشية الجمل ج٣ ص١٦٤ .
(٣) أنوار التنزيل ص٤٤٣ .
(٤) سورة المعارج من الآية ١٩-٢٥ والهلع : أفحش الجزع مع الحزن ، والجزع ضد الصبر انظر مادتي جزع وهلع في لسان العرب .

وثالثا : فإن العبادات الإسلامية عامل كبير في تغيير الإنسان من السيئ إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن ، فهذه العبادات تمكن الإنسان من تغيير عاداته غير الطيبة والحسنة إلى عادات فاضلة راقية .

إن قدرة العبادات على تغيير الإنسان تمثل عاملا كبيرا من عوامل التقدم والتحضر في شتى الميادين ٠ ذلك أن (الإنسان هو الركن الأساسي لكـــل حضارة وأن الحضارة دائما الركن الإنساني)[١] ٠ وذلك أن الإنسان بفكره وفعله هو الفاعل في الحركة الحضارية .

ويؤكد القرآن الكريم أن التغيير لابد أن يتم في النفس البشرية أولا ثم بعد ذلك يتم تلقائيا تغيير المجتمع ، يقول الله سبحانه وتعالى (إن الله لا يغـــير مـــا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٠٠٠)[٢] ٠ ولنأخذ نموذجا عبادة الصوم ، إنها تغير في الإنسان عادة أصلية ألا وهي نظامه في الطعام من مـــأكل ومشـــرب ٠ فعادة الإفطار والغذاء والعشاء صباحا وظهرا تغيرها عـــبادة الصوم إلى طعام سحور إلى قبيل الفجر ، وطعام إفطار مع غروب الشمس .

وقـــد كان تمكن كثيرون في شهر الصيام - بفضل الله - من تغيير عـــادات قبـــيحة وتركها وخلعها وذلك كعادة التدخين مثلا ، وكعادة كثرة الأكـــل المؤديـــة إلى السمنة والتي يترتب عليها أضرار كثيرة ، مما يجعل بعض الأطباء ينصحون مرضاهم بالصوم ٠

وكذلـــك عبادة الحج تغير الإنسان وتجعله أحسن مما كان ٠ وكذا ســـائر العـــبادات ، هذا وإن من المعلوم أن العبادات الإسلامية تمثل حافزا كبـــيرا (يقود المسلم إلى يقظة الضمير الدائمة وتحمل المسئولية كاملة قال تعـــالى (وأن لـــيس للإنســـان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى)[٣] .

وذلـــك في إنجاز كل عمل يمارسه مستجمعا طاقته كلها في سبيل مزيد العطاء والإنجاز وفق قدراته الذاتية وإمكاناته المتعددة وهذا ولا شك دافعا حضاريا خلاقا لأنه يحفز الإنسان على استنهاض كل طاقاته من أجل العمـــل علـــى أحسن وجه حيث إن المسلم وهو يتصل بالله ويتذكر إحاطته

---

(١) وجهة العالم الإسلامي مالك بن نبي ص١٧٧ بتصرف يسير ط دار الفكر ط٢ ، بيروت .
(٢) الرعد آية ١١ .
(٣) النجم آية ٣٩-٤٠ .

ورقابته في أعماق نفسه قال تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون)[١] . ووعده العظيم للذين يحسنون أعمالهم ويسارعون في أدائها، فإن ذلك يقوده إلى المسئولية والعمل الدائب والله تعالى يصف المؤمنين الصادقين بأنهم (يسارعون في الخيرات وهم سابقون)[٢] ولو أن مجتمعا إسلاميا بعث الإيمان في غالبية أفراده هذا الحافز أو المنبه لاستغلال معظم طاقاته وإمكاناته على أحسن وجه - ألا وهو المسارعة والسبق - فإن في إمكان هذا المجتمع أن يحقق تقدما حضاريا مميزا[٣] .

كما أن طبيعة هذه العبادات قد فرضت على علماء الإسلام بذل الوسع في جوانب علمية عديدة ، ليسروا أداء هذه العبادات وذلك كتحديد مطالع القمر ، ومنازله ، وحركة الشمس وقياس الجهات لتحديد جهة القبلة إلى غير ذلك .

يقول الدكتور / أحمد فؤاد باشا : (واهتم علماء المسلمين أيضا بأمور دينهم الحنيف وسخروا العلم لخدمة القضايا الدينية وتسهيل أداء الفروض والعبادات والمناسك وطوروا طرق القياس والحساب لتحديد سمت القبلة وتعيين أوائل الشهور ومنازل القمر ومواقيت الصلاة والحج وحساب المواريث والوصايا والمعاملات وغيرها ، وألفوا في ذلك العديد من الكتب والرسائل التي استعملها أهل الإسلام[٤] ، وبهذا الغرض - الموجز - يتبين الدور المهم للعبادات الإسلامية في توجيه النشاط الإنساني ونهضته وازدهاره ودفع عجلة التقدم والتحضر الذي يعود بالخير على الإنسان حيث كان يضاف إلى ذلك أن مفهوم العبادة في الإسلام يتسع ليشمل كل حركة - سواء أكانت قولية أو فعلية - تعود بالنفع العاجل أو الآجل على الإنسان وما حوله . فكان لهذا المفهوم أثره الكبير في استنهاض الهمم وتوجيه النشاط البحثي نحو دائرة تحقيق المنفعة لعموم بني الإنسان وكان المسلم راجيا من حركته تلك ، الأجر من الله سبحانه

---

(١) القصص ٦٩ .
(٢) المؤمنون ٦١ .
(٣) انظر مع القرآن في عالمه الرحيب ص١٢٦ وما بعدها نقلا عن أسس مفهوم الحضارة في الإسلام د/ سليمان الخطيب ص١٣٥/١٣٦ .
(٤) التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة د/ أحمد فؤاد باشا ص٤٠ .

وتعالى ولهذا كانت الحضارة الإسلامية مميزة عن غيرها بالأخلاقية الشاملة والعامة .

وبهذا يتبين أن للعقيدة الإسلامية والعبادات أثرها الكبير في تغيير الإنسان وصياغتها وتوجيه طاقته النفسية والاجتماعية وفق متطلبات مرحلة الحضارة ، يقول مالك بن نبي (إن أعمق التغيرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار العقيدة الدينية[١] على حد تعبيره .

العامل الثالث :

مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية :

إن من نعم الإسلام الكبرى على البشرية المساواة بينهم ، فلقد رزحت الإنسانية عهودا طويلة ذاقت فيها مرارة العنصرية - بل وما زالت هناك حتى عهدنا هذا مجتمعات تصطلي بنارها - والحق أن الإسلام هو الذي أعلن أن الناس سواء . وذلك في كتابه - القرآن الكريم - وفي عهد النبي ﷺ .

أولا : إعلان القرآن الكريم :

جاء هذا الإعلان المبارك في أكثر من آية نذكر منها قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)[٢] . فالآية تفيد أن الله خلق جميع الناس من نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام ، كما خلق حواء أم البشر منه ، ثم بينت الآية أن جميع الرجال والنساء من هذين الأبوين آدم وحواء.

قال البيضاوي (من نفس واحدة) هي آدم - وخلق منها زوجها - عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منها زوجها وهو تقرير لخلقهم من نفس واحدة - وبث منهما رجالا كثيرا ونساء - بيان

---

(١) انظر (ميلاد مجتمع) ص٦٢ ترجمة عبد الصبور شاهين . دار الفكر - دمشق ١٩٨٥م .
(٢) النساء الآية ١ .

كيفية تولدهم منهما والمعنى ونشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة[١] .

إنها تقرر بوضوح تام وحدة الجنس البشري وتكاثره من آدم وحواء ، فليس لأحد أن يزعم خلق جماعة من قدم الإله فتكون وضيعة ، وأخرى من فم الإله فتكون شريفة ... الخ ما تزعمه بعض الديانات الوضعية . (وليس هناك فصائل خلقت مزودة بالعقل والإرادة والأخرى محرومة من هذا العقل ، كما زعم فلاسفة اليونان . وليس هناك مختار بحسب خلقه ، وآخر وضيع كما افترى الإسرائيليون .. إنما هي الوحدة الإنسانية في منشئها ومصيرها ..)[٢] . ومن هذه الآيات أيضا قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[٣] .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في سبب نزول الآية : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله - ﷺ - بلالا حتى علا ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيض : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره . وقال أبو سفيان : أنا لا أقول شيئا أخاف أن يخبره رب السموات . فأتى جبريل النبي - ﷺ - وأخبره بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا ، فأقروا . فأنزل الله تعالى هذه الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأسباب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء وأن المدار على التقوى لأن الجميع من آدم وحواء . وإنما الفضل بالتقوى)[٤] .

---

(١) انظر ص١٠١ .
(٢) منهج القرآن في تربية المجتمع ص٤٧٥ .
(٣) الحجرات آية ١٣ .
(٤) انظر حاشية الجمل في تفسير الآية ج٤ ص١٨٥ والقرطبي في تفسير الآية المذكورة ، وذكرت كتب التفسير أسبابا أخرى . انظر التفسير الجامع بين فن الرواية والدراية . للشوكاني في تفسير الآية .

ثانيا : إعلان النبي - ﷺ - هذا المبدأ على الناس :

لقد أعلن - ﷺ - مبدأ المساواة على الناس بل وأمر بإبلاغه العالمين وذلك في جمع حاشد من الناس ، الرجال والنساء - يعد أكبر جمع للناس في هذا العهد فقي العام العاشر للهجرة وفي شهر ذي الحجة وفي الحجيج في منى خطب - ﷺ - في الناس بعد أن استنصتهم وكان مما قال في خطبته (يا أيها الناس ، ألا إن ربكم عز وجل واحد ، ألا وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى ألا قد بلغت ؟ قالوا : نعم ... قال (ليبلغ الشاهد الغائب)[١] .

فهذا الحديث خطاب عام للناس جميعا بأنهم ينتسبون لأب واحد ولا تفاضل بينهم بالأحساب والأنساب والأجناس والألوان والأموال وإنما هم سواسية كأسنان المشط . وإنما يكون التفاضل بين الناس بما يقدمونه من أعمال الخير والبر والتي تعود بالنفع على الناس .

وجاء في رواية (.... كلكم لآدم وآدم من تراب ...)[٢]

ومن ابلغ الكلم وأجمعه في ذلك ما رواه أبو هريرة - ﷺ - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس رجلان مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع أنفها النتن)[٣] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٥ ص٤١١ ، وقد صححه ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ج١ ص٤١٢ دار العاصمة بتحقيق د/ ناصر العقل وذكر عن الشيخ البنا صاحب الفتح الرباني بترتيب المسند أن الهيثمي قال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح الفتح ج١٢ ص٢٢٧ .
(٢) حديث كلكم لآدم ..) أخرجه الترمذي (عن ابن عمر بلفظ والناس بنو آدم) كتاب المناقب . باب في فضل الشام واليمن . حديث ٣٩٥٦ ، وقال هذا حديث حسن وأخرجه أبو داود بلفظ (أنتم بنو آدم) كتاب الأدب في التفاخر .
(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في التفاخر برقم ٥١١٦ ج٥ ص٢٣٣٩ وصححه ابن تيمية ، وأخرجه الترمذي .

والعبـية : الكبر والنخوة والفخر[١] وهي من أمر الجاهلية المقبعة التي لا يجوز للمسلم أن يأتي شيئا منها .

قـال شيخ الإسلام ابن تيمية : فأضاف العبية والفخر إلى الجاهلية يذمهـا بذلـك ٠ وذلـك يقتضي ذمها بكونها مضافة إلى الجاهلية ٠ وذلك يقتضـي ذم الأمـور المضافة إلى الجاهلية[٢] والتي جاء الإسلام ليهدمها وينقضـها - خاصـة الصفات الخبيثة منها - ومن شرها التفاخر بالأنساب والتعبـير عن الأجناس والألوان ٠ وإن من يفعل ذلك الفعل الجاهلي فإنه عن الله أهون من الدويبة الصغيرة المنفرة ، والتي يطلق عليها الجعلان ، والـتقوى - والتـي تشمل كل أنواع البر - والتي يفضل بعض الناس بها الآخريـن (فلا تأثير لها على تطبيق مبدأ المساواة في حياة الناس ٠ ذلك أن محل التفاضل بالتقوى في الآخرة لا في الدنيا ٠ أمام الله لا بين الناس٠ وتفاضـل هـذا شأنه لا يتصور أن يكون له تأثير في أعمال مبدأ المساواة أمام القانون[٣] .

كمـا أن المساواة في الإسلام لا استثناء فيها ٠ فإنا نجد النصوص الشـرعية التي جاءت بها ، بصفة مطلقة ، فلا قيود ولا استثناءات ، وأنها المساواة على الناس كافة ، أي على العالم كله ، فلا فضل لفرد على فرد ، ولا لجماعـة على جماعة ، ولا لجنس على جنس ، ولا للون على لون ، ولا لسيد على مسود ، ولا لحاكم على محكوم[٤] .

وقـد تقرر مبدأ المساواة والرسول - ﷺ - يعيش في قوم أساس حـياتهم وقوامها التفاضل ، فهم يتفاضلون بالمال والجاه ، والشرف واللون ، ويـتفاخرون بالآبـاء والأمهـات والقـبائل والأجـناس فلم تكن الحياة الاجتماعـية وحاجة الجماعة هي الدافعة لتقرير مبدأ المساواة ، وإنما كان الدافـع لـتقريرها مـن وجه هو رفع مستوى الجماعة ودفعها نحو الرقي

(١) انظر شرح السنة للبغوي ج١٣ ص١٢٤ .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ط١ ص٢٤٧ .
(٣) انظر في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص٢٢٩ د/ محمد سليم العواط دار العوا ٠ ط دار الشروق الأولى ١٤١٠هـ .
(٤) التشريع الجنائي في الإسلام أ/ عبد القادر عوده ٠ ج١ ص٢٦ ط دار الكتاب العربي بدون تاريخ .

والتقدم كما كان الدافع لتقريرها من وجه آخر ضرورة تكميل الشريعة بما تقتضيه الشريعة الكاملة الدائمة من مبادئ[١] .

ومـع أن لمـبدأ المساواة أثره الفعال في تقدم الشعوب وتحضرها وازدهارهـا فـإن القوانين الوضعية البشرية لم تعرفه إلا في أواخر القرن الثمـن عشـر المـيلادي وبالتحديد فقد تقرر في " إعلان حقوق الإنسان الفرنسـي " الصـادر فـي سنة ١٧٨٩م وعلى هذا فإن تقرير هذا المبدأ الإسلامي سبق به الإسلامي غيره من التشريعات الوضعية بأحد عشر قرنا من الزمان .

مـن شـهادات المفكريـن لأثـر المساواة الإسلامية في التقدم الحضاري :

إن الحضارة الإسلامية حضارة عالمية إنسانية لا تعرف العنصرية بـل تخلعهـا مـن جذورهـا ٠ يقـول المـؤرخ والفيلسـوف تويسـني (A. J. Joyanbee) فـي كتابه (الحضارة في الامتحان)[٢] ٠ " إن القضاء علـى الفـوارق السـلالية والعصـبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره ، أما العصر الحالي الذي نعيش فيه فإن هذه الفضيلة هي كـبرى حاجات هذا العصر ، إنه مما لا شك فيه أن الشعوب الناطقة باللغة الإنكلـيزية قـد حققـت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الإنساني بخير ورحمة ، لكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها أخفقت في القضاء على العواطف السلالية والجنسية "

ويقول جواهو لال نهوو : (إن الإسلام هو الباعث والفكرة اليقظة العربـية بمـا بـثه في أتباعه من ثقة ونشاط ٠٠٠ ولقد كانت ثقة العرب وإيمـانهم عظيميـن ، وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) centsat socil ,p٢ ٥٥ نقلا عن كتاب الرحالون العرب وحضارة الغرب دكتورة/ نازك سابايارد ٠ ص٣٤/٣٥ ط مؤسسة نوفل ٠ بيروت لبنان ١٩٧٩م ٠ ومن المعروف أنه ما زالت العنصرية - أو بقايا منه - قائمة حتى اليوم في بعض الدول المتقدمة والتي تزعم حماية وحراسة حقوق الإنسان وتنصب نفسها الشرطي المسؤول والمعاقب على ذلك وفي القانون الوضعي استثناءات إلى الآن ، ولما تصل بعد هذه القوانين للمساواة الإسلامية .

والعدل بين جميع المسلمين ٠ وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد ، وأية مقارنة بين رسالة الأخوة الإسلامية وحالة النصرانية المنحلة تجعل المرء يدرك مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ، ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب !(١) .

وتقول إيفلين كو بولد ، في حديث لها عن الإسلام وعباداته (٠٠٠ من فوائد الحج أنه يوطد الوحدة الإسلامية ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد - ﷺ - وهو يدعو المسلمين في كل عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب والتحدث إلى بعضهم بعضا ٠٠٠ فالحج والحالة هذه ليس فرضا دينيا فحسب ، وإنما هو إلى ذلك كله ، جمعية أمم عظمى / ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك (هبرو غرنجة المستشرق الهولندي) فقال : (لقد سبق الإسلام الحكومات الأوربية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلا ، ولعمري أن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يخجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها)(٢) .

ثم قالت (٠٠٠ إذا لم يكن في الإسلام إلا هذه الأخوة التي قتلت التفرقة وجعلت من الإنسانية شخصا واحدا لا يعلو واحدها على رفيقه إلا بالتقوى والعمل الصالح لكفى ٠ ولكن الإسلام خير الأديان وأقربها إلى الله وأرفعها درجات ، ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة في تاريخ الإنسانية ، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعم الغرب من أقصاه إلى أقصاه ويتصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره ، وكيف أن الإسلام يقف وحيدا في هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات ٠)(٣) .

---

(١) لمحات من تاريخ العالم – لنهرو – جواهر لال (رئيس وزراء الهند سابقه) ص٢٦/٢٤ ٠ ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين ط٢ المكتب التجاري بيروت ٠ نقلا عن كتاب (قالوا عن الإسلام) د/ عماد الدين خليل ط الندوة العالمية للشباب الإسلامي .

(٢) انظر كتاب البحث عن اله – ايفيلين كو بولد ص١٣ ، نقلا عن كاتبة إنكليزية اعتنقت الإسلام بعد دراسة متأنية .

(٣) انظر المصدر السابق نفسه .

ويقول المفكر الإنكليزي عبد الله - كويليام(١) معبرا عن المساواة الإسلامية التي لا يوجد مثلها في العالم يقول : (إن الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعا في أحكامها ، من أعظم ملك إلى أقل صعلوك فهي شريعة حيكت بأحكم وأعلم منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالم)(٢)

قال أحد مشاهير المستشرقين : (لم يحرز مجتمع من المجتمعات البشرية نجاحا مثل ما أحرزه الإسلام في إقرار المساواة بين الأجيال المختلفة ، بصرف النظر عن الطبقات البشرية وتنوع في الفرص ، وإمكانيات العمل ، ولقد تجلت من أوضاع الجالية الإسلامية الكبيرة في إفريقيا والهند وأندونيسيا ، ومن الجالية الإسلامية الصغيرة في اليابان ، قدرة الإسلام على إذابة الاختلافات في الأجيال والتقاليد التي لا تزول على مر القرون وعلى مدار التاريخ ، فإذا كان لابد من إحلال عاطفة التعاون مكان الطرح والخصومة بين مجمعي الشرق والغرب المكبيرين فلابد من ذلك من الاستعانة بالإسلام والاعتماد عليه في تحقيق هذا المطلوب(٣) .

يقول البروفيسور رشبروك والياحز(٤) : (إن هذه التقاليد الإسلامية) تشمل مبادئ المساواة بين الأرواح الإنسانية أمام الله وتقرر أواصر الاخوة العالمية بين جميع المؤمنين بغير نظر إلى العنصر أو اللون كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجور عليه ٠٠٠(٥)

---

(١) مفكر إنكليزي ولد سنة ١٨٥٦م وأسلم سنة ١٨٨٧م ومن كتاباته (العقيدة الإسلامية) ١٨٨٩م وله أيضا (أحسن الأجوبة) .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام جولد سيهر ص١٢٣ (عن كتاب شكوى وارن هاستنج لا رماند يورك) – نقلا عن قالوا عن الإسلام .

(٣) جيب – المستشرق في كتابه تجاه الإسلام ص٣٧٩ نقلا عن الإسلام أثره في الحضارة ٠ وجيب هو هاملتون الكساندر روسكين جيب ولد سنة ١٨٩٥م وتوفى ١٩٦٧م ويعد إمام المستشرقين في وقته ، عمل أستاذا للغة العربية بجامعة لندن سنة ١٩٣٠م وأستاذا في جامعة منذ سنة ١٩٣٧م وعضوا مؤسس في المجتمع العلمي المصري .

(٤) من أصحاب الدراسات الواسعة عن شئون الشرق الأوسط والهند وباكستان.

(٥) دولة الباكستان ٠ عن تعالوا عن الإسلام ص٢٥٨ .

ويقـول المفكر المستشرق دمونتكومري وات[١] (إن فكرة الأمة) كمـا جاء بها الإسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق إليها ٠ ولم تزل إلى هـذا الزمـن ينـبوعا لكـل فيض من فيوض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى (الوحـدة) فـي (أمـة) واحـدة تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصـبيات النسـل والسـلالة ٠ وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتـباعه فاشـتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح ولم يخـرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها ، بـل كـان المنشـقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفي الغرباء عنها[٢] .

(إن أشـياء كثـيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تميزهم فروق الدين والعرق واللـون)[٣] ٠ (لقـد سـاد الإسـلام لأنه كان - ولا يزال - خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه)[٤] .

واجتزأ يسيرا من محاضرة الأستاذ (يهودا) من جامعة " مجريط " والـذي زار القاهـرة وألقاهـا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في مارس ١٩٢٨م قـال فـيها : (وأدركـوا - يقصـد العلماء - أن العلوم الطبيعية والقوانيـن الأساسية في الفلسفة والرياضيات وعلوم العمران كانت تستمد روحهـا في زمن النهضة والإصلاح من ذلك المنهل العذب وهو الحضارة الإسلامية ٠٠٠ الخ وبالرغم من تحامل " دوزي " على المسلمين فإنه يقول فـي كتابه (تاريخ المسلمين في أسبانيا) : (إن العرب لم يحكموا بتعاليم

(١) مونكومري وات : عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا سابقا وله العديد من الدراسات عن الإسلام منها (عوامل انتشار الإسلام) و (ومحمد في مكة) و (محمد في المدينة) وعالج الوحدة الغربية وهو الإسلام في دراسة بعنوان (الإسلام والجماعة الموحدة) .
(٢) الإسلام والجماعة المتحدة ٠ عن : العقاد ، ما يقال عن الإسلام ص١٨٣ .
(٣) لويس يونغ ، في كتابه (الغرب وأوربا) ص١٠ .
(٤) هـ . ج . ولز . معالم تاريخ معالم تاريخ الإنسانية ج٣ ص٦٤٩ .

فلسـفية فقط بل بالفطرة والغريزة ٠ حتى حققوا بادئ ذي بدء مقالة الثورة الفرنسية وهي : (الحرية ، والمساواة ، والإخاء ٠٠٠)[١] .

وتكـثر شـهادات هـؤلاء لمبادئ الإسلام ومعطياته ذات الفعالية والتأثـير الحضـاري ممـا يطول عرضه ويخرج بها البحث عن غرضه ولكـن أختـتم بهذه الكلمة والتي يعبر بها هربرتجورج ولز[٢] عن عناصر القـوة فـي الإسـلام فيذكر من أهمها المساواة فيقول وعنصر القوة - في الإسـلام - يكمـن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعا متساوون تمامـا أمام الله مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم هذه وغيرها هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشئون الإنسانية[٣] .

العامل الرابع : حث الإسلام على العلم والنظر في الكون

١ - الحث على العلم

لقـد جـاءت دعوة الإسلام إلى العلم والانتفاع به من أول يوم في الدعـوة ٠ فمـن المعلـوم أن أول آيـات القرآن الكريم نزولاً في وسائل وأدوات العلـم ٠ وبين أن العلم بقسميه الوهبي والكسبي إنما هو من رزق الله للإنسـان ، ونـزول أول الآيات في شأن العلم له دلالات كبيرة ومهمة توضـح ضـرورة العلـم وأدواته من قراءة وقلم وكتابة وتلقي للشخصية الإنسانية في الحياة بشعبها الاجتماعية والاقتصادية ٠٠٠٠ وإشارة واضحة إلـى أن حضـارة الإسلام علمية تعتمد ما سبق أدوات معرفية للانطلاقة الحضـارية ، وأن العلـم ووسائله والحضارة وروافدها مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالله سبحانه وتعالى .

يقـول عز وجل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[٤]

(١) انظر الحضارة والتمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى د/ عبد المتعال الجبري ص٣٥ ط مكتبة وهبة – مصر ١٤١٤هـ ط الأولى .
(٢) بريطاني ولد سنة ١٨٦٦م وتوفى سنة ١٩٤٦م ٠ حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٨٨٨م واشتهر كأديب له قصص شهيرة وله معالم تاريخ الإنسانية وموجز تاريخ العالم .
(٣) انظر موجز تاريخ العالم ص٢٠٢ .
(٤) العلق آية ١-٥

والأمـر بالقـراءة جاء مقروناً باسم الله ، والمعنى : (اقرأ مفتتحا القـراءة باسـم ربك ، أي قل باسم الله ثم اقرأ ، أو المعنى : اقرأ مستعينا باسم ربك)[١] وقيل غير ذلك ، ولعل هذين هما الأقرب .

وفـي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على العلم وتبين فضله منها قولـه عز وجل ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ [٢] وفيها أن الاستزادة من العلم أمـر مطلوب ويكون في حق غير النبي – ﷺ –أولى (وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدني علماً ويقيناً)[٣] .

ومن تشريف القرآن الكريم للعلم أن جعله قرين الخلق في كثير من الآيات ، وذلك لأن غاية الخلائق لا تتحقق إلا بالعلم ، ولا تكمل النعمة إلا بـه ، قـال عـز وجل : ﴿ الرحمن ؛ علم القرآن ؛ خلق لإنسان ؛ علمه البيان ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ اقرأ باسم برك الذي خلق ﴾[٥].

(فالـرب المتصف بغاية الرحمة قرن خلق الإنسان بنعمة العلم ، ولولا ذلك لما انتفع الخلق أحد ، وقال تعالى في شأن الخلائق عامة ﴿الذي خلـق فسوى والذي قدر فهدى ﴾[٦]وقال تعالى ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[٧] أي أعطى كل شيء صورة خلقه ثم زوده بالهدى والإدراك الذي يقـيم علـيه حـياته ويؤدي به وظيفته جبلة أو اختياراً ، ولولا ذلك النور الإلهي الذي اقترن بالخلق لصارت نعمة الوجود عدما ، وضياعاً ، ومواتاً ، لأن الجهل قرين العدم والموت والخراب ، وهذا من أعظم ألوان تشريف القرآن الكريم للعلم)[٨] وأهله .

---

(١) انظر حاشية الجمل ج٤ ص٥٦١
(٢) طه آية ١١٤
(٣) حاشية الجمل ج٣ ص١١٣
(٤) الرحمن من آية ١-٤
(٥) العلق آية ١
(٦) الأعلى آية ٢ ، ٣
(٧) طه آية ٥٠
(٨) المدخل إلى التفسير الموضوعي د/ عبد الستار فتح الله سعيد صـ ١٩٤ ، ١٩٥ ط أولى / دار التوزيع والنشر الإسلامية .

ومن مدح القرآن الكريم للعلم وأهله وإعلاء شأنهم أن جعله وصفاً وامتـيازاً لأكـرم المخلوقات ، وعامل ترشيحهم لمهام الأعمال وأشرفها ، كالرسالة والنبوة والخلافة والوزارة .

فهـذا رسـول الله محمد – ﷺ – يمن الله تعالى عليه بالعلم قال تعالى : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[١]

وقـال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ [٢]

وقـال عن موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [٣]

وقـال عز وجل ممتناً على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ﴿ وإذ علمتك الكتاب والتوراة والإنجيل ﴾ [٤]

وقـال تعالى في داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴿ ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ [٥]

وكـان العلم وراء توزير يوسف عليه الصلاة والسلام ، كما حكى تعـالى عنه ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [٦] فقد اسـتوزر يوسـف عليه الصلاة والسلام بمؤهلاته العلمية في تنظيم تمويل البلاد .

كما كان العلم من أكبر أسباب تمليك طالوت على بني إسرائيل وقد جـاءت حيثـيات أحقيته بالملك في القرآن ، قال تعالى ﴿ إن الله اصطفاه علـيكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ [٧] فأفادت الآية أن سعة علمه مع قوة جسده سببا ترشيحه للملك .

وقد وافقت السنة المشرفة القرآن الكريم في الحث على العلم وذكر فضله وأهله .

---

(١) سورة النساء ١١٣
(٢) سورة مريم ٤٣
(٣) سورة القصص ١٤
(٤) سورة المائدة ١٠٩
(٥) سورة الأنبياء ٧٩
(٦) سورة يوسف ٥٥
(٧) سورة البقرة ٢٤٧

ومن ذلك ما أخرجه أصحاب السنن عن أبي الدرداء - ﷺ - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[١] فهذا حديث واضح البيان في ثواب تحصيل العلم وفي فضل أهله ، وهل من فضل أكبر من اشتغال سكان السماوات والأرض بالدعاء والاستغفار لهم ، وإنهم أقمار تضيء وتهدي الناس ، وذلك بما ورثوا عن الأنبياء والمرسلين وأهل الهدى .

ومن الأحاديث التي بينت شرف العلم وأهله ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - ﷺ - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به بعده ، أو ولد صالح يدعو له)[٢]

وعلماء الإسلام يتناقلون العلم ويبحثون عنه ويستنبطون من المعارف وفي ذاكرتهم أن مذكراته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وبذله صدقة ، ودارسته تعدل الصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد – رحمه الله – : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب مرة أو مرتين . وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه .

وجاء عن الإمام الشافعي – رحمه الله – أنه قال : طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة .

ونص على ذلك أبو حنيفة – رحمه الله .

---

(١) أخرجه أبو داود بلفظه في سننه كتاب العلم باب الحث على طلب العلم حديث رقم ٣٦٤١

(٢) أخرجه مسلم بلفظه كتاب التوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته حديث رقم ١٦٣١ – والترمذي في كتاب الأحكام باب في الوقف وقال : حسن صحيح حديث رقم ١٣٧٦

وقال ابن وهب : كنت بين يدي مالك - ﷺ - فوضعت ألواحي وقمت أصلي فقال : ما إلى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه .[١]

٢ - الحث على النظر في الكون :

جاءت آيات القرآن الكريم تدعو الإنسان لتحصيل المعارف واستنباط السنن والقوانين الكونية ، وتدبر ما في الكون من مخلوقات ، وما في الإنسان من آيات ودلالات ، وتحث على النظر والتفكر وإعمال العقل، وتعرفه كيف يميز بين الحقائق والأباطيل والأوهام والظنون والأكاذيب .

ومن حقائق المنهج القرآني قوله تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٢] ومنها قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ [٣] ومنها قوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ [٤] إلى آخر الآيات وهي كثيرة في هذا المقام .

ومن جوامع الآيات التي حثت على النظر في الكون قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [٥] أي تفكروا ماذا في السموات والأرض من عجائب المخلوقات فإن هذا التفكر يهديكم إلى الإيمان ، واكتشاف سنن الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [٦]، وقد نبه سبحانه (على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس ، والاكتساب منها ٠٠٠٠ وما خلق الله ذلك إلا بالحق ، أي إلا ملتبساً بالحق مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة)[٧] وينتفع بهذه الآيات الذين يعلمون ، فإنهم الذين يتأملونها .

---

(١) انظر في ذلك بتوسع ٠ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، ومختصر مدارج السالكين ص٤٨٤ وما بعدها .

(٢) البقرة ١١١

(٣) النجم ٢٨

(٤) الحجرات ٦

(٥) يونس ١٠١

(٦) يونس ٥

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل صـ ٢٧٣

وبذكر الآيات الكريمة منازل القمر ، وترتيب علم الحساب وعدد السنين على ذلك فيه دلالة واضحة بأهمية تعلم الحساب والأعداد والأرقام، وهو بذلك يدفع المسلمين إلى (عملية النظرة من ناحية ، وإلى فاعلية الحضارة الإنسانية ، من جهة أخرى يصل الإنسان بهذا الإعداد الممزوج إلى الإنجازات الحضارية المهمة والفعالة في حياة الإنسان ، والتي ما كان له أن يصل إليها لولا استخدام الأرقام والأعداد ولولا معرفة أصول الحساب)[١] .

وقد أكد القرآن هذا المعنى كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾[٢].

كما تعددت الآيات الكريمة الجامعة لنعم الله في كونه رابطة ذلك بالعلم والإيمان ، وهي بذلك دعوة للمسلمين من أجل التنقيب عن السنن الكونية في أعماق التربة ، وفي شواهق الجبال ، وفي مسالك الطبيعة ومنحنياتها ، وفي العلم النباتي والحيواني والبيولوجي ليتمكن الإنسان المسلم بأدوات العلم من تسخير القوانين الربانية في الكون فيحقق بذلك تقدماً حضارياً مرموقاً .

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور ﴾[٣].

---

(١) انظر العلم والإيمان في الإسلام مجموعة بحوث نشرتها وزارة الثقافة بتونس صـ ٥٣ وما بعدها بتصرف .
(٢) الإسراء آية ١٢
(٣) فاطر ٢٧ ، ٢٨

أثر دعوة الإسلام للعلم في التقدم الحضاري .

أ – العلم مطلوب شرعاً : وهو ما كلفنا الإسلام به ، إما على سبيل الوجوب العيني ، كعلم أصول الإيمان الستة ، وعلم ما يجب على المسلم من عبادات كالصلاة والصيام والزكاة إن كان له مال ، والحج إن استطاع إليه سبيلا ، وعلم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسالات والشرائع والكتب الإلهية المنزلة ، وهي الواردة في قوله عز وجل : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر بها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[١].

وعلم أحكام المعاملات التي هي ضرورة للناس في معاشهم ومعاشرتهم للخلق[٢] .

وأما العلم المطلوب على سبيل الوجوب الكفائي[٣] فهو علم الفروع، وتفصيلات الأدلة ، وكل ما يحتاجه المسلمون في صلاح دنياهم، وعبر عن ذلك الإمام ابن عبد البر بقوله (ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه، وتعليم الناس إياه وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم ، فهو فرض على الكفاية ، يلزم الجميع فرضه ، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين ، لا خلاف بين العلماء في ذلك ، وحجتهم فيه قول الله عز وجل : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[٤].

فلزم النفير في ذلك البعض دون الكل ، ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم ، والطائفة في لسان العرب : الواحد فما فوقه[٥] .

---

(١) الأعراف ٣٣
(٢) انظر في هذا مفتاح دار السعادة صـ ١٧٠ ، ١٧١
(٣) وضابطه : ما ينظر الشارع فيه إلى نفس الفعل ، بقطع النظر عن فاعله ، كإنقاذ الغريق ، إذ لا فرق بين أن ينقذه زيد أو عمرو ، والتحقق في فرض الكفاية أنه واجب على كل المخاطبين به يسقط بفعل بعضهم بدليل إن فعلوه كلهم نالوا ثواب الواجب كلهم ، وإن تركوه كلهم أثموا كلهم ، انظر مذكرة الشيخ الشنقيطي على روضة الناظر لابن قدامة صـ١٣ ، صـ ١٩٩ ط/ السفلية بالمدينة .
(٤) التوبة ١٢٢
(٥) انظر جامع بيان العلم ج١ ص١٢

والمفهوم من النصوص الوجوب على جماعة المسلمين التقدم في هذه العلوم التي تجلب النفع الصحيح لهم ، وتدفع الأضرار عنهم ، وتكشف لهم ما أودعه الله في الكون من سنن وقوانين وأسرار حتى تحصل كفايتهم ، بل ويتقدم على غيرهم في ذلك لتحصل لهم الغنية عن الغير ، والعزة على أهل الملل الأخرى .

ويشمل هذا العلم كل ما يحقق عمارة الأرض من زراعة وصناعة، وطب وصيدلة ، وحساب وفلك ، وكمياء وهندسة إلى غير ذلك مما يطول .

وما ينبغي التنبيه عليه أن هذه كلها علوم مشروعة داخلة في إطار العلوم الشرعية الواجب على الأمة التمكن فيها ، ويؤخذ هذا من قول الله عز وجل ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ [1].

ويكاد يكون العلم اليوم – خاصة التجريبي منه – أكبر الوسائل لتحصيل هذه القوة سواء أكانت اقتصادية أم عسكرية أم غير ذلك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومن نافلة القول أن الشريعة الإسلامية تحث وتدفع أتباعها لاستكشاف قوانين الكون ، ولم تفصل بين هذا العلم وما أنزله الله من وحي ، ولا بين الإيمان والعلم ، بل العلم ضروري للإيمان ، والكوني منه يؤكده ويرسخه .

ب – النهضة العلمية للمسلمين وأثرها على الغير .

لم تسبق شريعة الإسلام شريعة أخرى في هذا المضمار ، فقد انطلق المسلمون الأولون ونهلوا من جميع العلوم ، وأخذوا الحكمة حيث وجدوها ، فهم أحق بها ، وبذلك حققوا حضارة لم يشهد التاريخ مثلها ، دون أن تتفلت من القيم والأخلاق والأمانة العلمية ، فجزاهم الله عن البشرية خير جزاء . يقول جوليفة تستلو العلم الفرنسي في كتابه (قانون التاريخ) : (فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة . قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره في الفنون والآداب ، والشعر والعلوم .

(١) الأنفال ٦٠

وقبض – العلماء – العرب بأيديهم خلال عدة قرون مشعل النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية ، التي لها مساس بالفلسفة ، والفلك ، والكيمياء والطب والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية .... وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى ، وإن أوربا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية، وأمام العالم العربي ، والآداب والفنون العربية ، وأوربا تدين بالهواء النافع الذي تمتعت به في تلك العصور للأفكار العربية)[1] ويقول روبيرت بيري فالت : (وما نسميه العلم الآن الذي ظهر في أوربا كنتيجة لروح التحقيق وللأساليب الجديدة للبحث ، ولطرق التجربة والملاحظة والقياس ، ولنشوء العلوم الرياضية .

كان بحالة حقيقية غير معلوم لليونان ، وإن تلك الروح والأساليب أدخلت في العالم الأوربي بالعرب)[2] وفي حديثه عن المنهج العلمي التجريبي ، وبيان حقيقة مكتشفه يقول : فلم يكن روجر بيكون[3] ، ولا شريكه في الاسم الآخر يستحقان أن يسندا إليهما فضل إدخال الأسلوب التجريبي في أوربا فإن فروجر بيكون لم يكن إلا رسول علوم المسلمين ومناهجهم لأوربا المسيحية ، وهو لم يَنِ في إقرار أن الطريق الوحيد لمعاصريه إلى العلم الحقيقي هو تعلم العربية . فالبحث فيمن هو مبتكر المنهج التجريبي مثل نسبة كل اكتشاف عربي ، أو اختراع إلى أول أوربي الذي اتفق أنه هو نوه به أول مرة[4] .

(١) نقلا عن الإسلام أثره في الحضارة أبو الحسن الندوي صـ ٩٣

(٢) تكوين الإنسانية ترجمة السيد أبو النصر أحمد الحسيني صـ ١٢١ ط/ دار الكتب الحديث

(٣) فيلسوف إنجليزي شهير ولد سنة ١٢١٤م وتعلم في إكسفورد ويعتبر أول من نقل الطريق العلمي من المسلمين إلى أوربا ، فسمى مؤسس الطريق العلمي في أوربا ، ومات في اكسفورد سنة ١٢٩٤م وتأثر بكتاب المناظير لابن الهيثم في أعماله وبحوثه .

(٤) السابق صـ ١٥٢ ، ١٥٣

إن العلـــوم تدين بمقدار عظيم أكثر للثقافة العربية وذلك لأنها تدين لنفس وجودها لها[١].

(١) السابق صـــ ١٢٠

ثبت المراجع والمصادر

القرآن الكريم

١- أسس مفهوم الحضارة في الإسلام د/ سليمان الخطيب ط/ الزهراء للإعلام العربي ط/ أولى ١٤٠٦هـــ ١٩٨٦م .

٢- الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية أبو الحسن الندوي ط/ دار الصحوة مصر .

٣- الإعلام للزركلي ط/ دار العلم للملايين لبنان الطبعة الثالثة.

٤- أفاق جزائرية مالك بن نبي ط/ مكتبة النهضة بالجزائر بدون .

٥- اقتضاء الصراط المستقيم شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د/ ناصر العقل ط/ دار العاصمة .

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ط/ المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـــ .

٧- بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول شيخ الإسلام ابن تيمية بهامش السنة النبوية ط/ المكتبة العلمية بيروت . بدون .

٨- تاج العروس للزبيدي ط/ دار لكتاب العربي .

٩- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية د/ محمود إسماعيل ط/ مكتبة الفلاح ١٤١٠هـــ ١٩٩٠م .

١٠- تأملات مالك بن نبي ط/ دار الفكر ١٩٨٥م .

١١- تدهور الحضارة الغربية - أوسوالد شبنجلر .

١٢- التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ٠ د/ أحمد فؤاد باشا ط/ دار المعارف بمصر الطبعة الأولى ١٤٠٣هـــ .

١٣- التشريع الجنائي في الإسلام الأستاذ عبد القادر عودة ط/ دار الكتاب العربي بدون .

١٤- تطور الشعور الديني عند الطفل د/ عبد المنعم المليجي ط/ دار المعارف بمصر .

١٥- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط/ الحلبي بمصر .

١٦- تكملة المعاجم العربية لرينارتدوزي ترجمة محمد سليم النعمي ط/ وزارة الثقافة العراقية .

١٧- تهذيب مدارج السالكين الشيخ عبد المنعم العزي ط/ وزارة العدل والأوقاف دولة الإمارات العربية .
١٨- ثقافتنا في مواجهة العصر د/ زكي نجيب محمود ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦م .
١٩- جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ط/ المطبعة المنيرية بمصر ١٣٤٦هـ .
٢٠- جامع الترمذي أبو عيسى الترمذي .
٢١- الجامع لصحيح للإمام محمد ابن إسماعيل البخاري .
٢٢- الجامع الصحيح المسند للإمام مسلم ابن الحجاج .
٢٣- جامع العلوم والحكم ابن رجب الحنبلي ط/ الرسالة .
٢٤- جغرافية الحضارات رولان بيريتون تعريب د/ خليل أحمد خليل منشورات عويدان بيروت ٠ باريس سلسلة سنة ٢٠٠٠ الطبعة الأولى.
٢٥- الحضارة والتمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى د/ عبد المتعال الجبري ط/ مكتبة وهبة بمصر الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
٢٦- دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره) د/ محمود محمد صفر سلسلة كتاب الأمة رقم ٢١ طبعة أخبار اليوم بمصر .
٢٧- دراسات في الثقافة الإسلامية د/ أمير عبد العزيز ط / دار الأنصار.
٢٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ط/ عالم المعرفة بيروت ١٩٩٦م .
٢٩- الدين د/ محمد عبد الله دراز ط/ دار القلم بالكويت ١٣٩٠هـ .
٣٠- الرحالون العرب وحضارة الغرب نازك سابايارد ط/ مؤسسة نوفل بيروت ١٩٧٩م .
٣١- السنن لأبي داود .
٣٢- شروط النهضة مالك بن نبي ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ط/ دار الفكر ١٩٨٦م .
٣٣- غرائب الغرب محمد كرد على ط/ المطبعة الرحمانية بمصر طبعة ثانية ١٣٤١هـ .

٣٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، الحافظ ابن حجر ط/ السفلية .
٣٥- فتح القدير (التفسير الجامع بين فني الدراية والرواية) للإمام الشوكاني ط/ دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .
٣٦- الفتوحات الإلهية (حاشية على تفسير الجلالين) المعروفة بحاشية الجمل على الجلالين ط/ عيسى الحلبي مصر .
٣٧- فكرة الأفريقية الأسيوية في ضوء المؤتمر باندونج مالك بن نبي ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ط/ دار الفكر ١٩٨١م .
٣٨- في ظلال القرآن سيد قطب ط/ دار الشروق الطبعة الحادية عشرة.
٣٩- في النظام السياسي الإسلامي د/ محمد سليم العوا ط/ دار الشروق ١٤١٠هـ .
٤٠- قالوا عن الإسلام د/ عماد الدين خليل ط/ الندوة العالمية للشباب الإسلامي .
٤١- قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية د/ سامي زيبان وآخرون ط/ رياض الريس للكتب والنشر بلندن ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م .
٤٢- قرة العينين برفع اليدين في الصلاة الإمام البخاري ط/ دار الأرقم بالكويت ١٤٠٤هـ .
٤٣- لسان العرب لابن منظور ط/ المؤسسة المصرية العامة للكتاب .
٤٤- لمحات في الثقافة الإسلامية / عمر عودة الخطيب ط/ مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ .
٤٥- مختار الصحاح الرازي ط/ بيروت بتصحيح محمد خاطر .
٤٦- مدارج السالكين ابن قيم الجوزيه ط/ دار الحديث بمصر .
٤٧- المدخل في التفسير الموضوعي د/ عبد الستار فتح الله سعيد ط/ دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر الطبعة الأولى .
٤٨- المسند للإمام أحمد بن حنبل ط/ دار الأفكار ١٩٩٩م .
٤٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ، ط/ دار القلم بالكويت الطبعة الثالثة عشر ١٩٨٢م .
٥٠- مذكرة الشيخ الشنقيطي على روضة ابن قدامه ط/ السفلية المدينة المنورة .

٥١- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري د/ محسن عبد الحميد رقم ٦ ط/ قطر .
٥٢- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي مالك بن نبي ترجمة بسام بركة ط/ دار الفكر ١٩٨٦م .
٥٣- مشكلة الثقافة مالك بن نبي ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ط/ دار الفكر ١٩٨٥م .
٥٤- معالم في الطريق سيد قطب ط/ دار الشروق ١٩٨١م .
٥٥- مفتاح دار السعادة ابن قيم الجوزيه ط/ مكتبة الأزهر ١٣٥٨هـ .
٥٦- مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بمقدمة ابن خلدون ط/ بيروت دار لكتب اللبناني .
٥٧- منهج القرآن في تربية المجتمع د/ عبد الفتاح عاشور ط/ مكتبة الخانجي بمصر .
٥٨- ميلاد مجتمع / مالك بن نبي ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ط/ دار الفكر ٠ دمشق ١٩٨٥م .
٥٩- النظام الاقتصادي في الإسلام د/ أحمد العسال وزميله ط/ مكتبة وهبة مصر ١٤٠٠هـ .
٦٠- نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار د/ أحمد العماري ط/ المعهد العالمي للفكر الإسلامي .
٦١- وجهة العالم الإسلامي / مالك بن نبي ط/ دار الفكر بيروت الطبعة الثانية .